ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٣ ، السنـــــة : ٤٧

ربيع الأوّل ١٤٤٤هـ ، أكتوبر ٢٠٢٢م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- ما أعظم شهر ربيع الأول؟! — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الهجرة... دروس في البذل والتضحية — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- الهجرة بين التفسير المادي والروحيّ — الأستاذ البهي الخولي — ١٥
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ٢٢
- المجتمع الإسلامي بين الواقع والمثال — الأستاذ إسحق موسى الحسيني — ٢٧
- يومان في حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — الدكتور محمد الدسوقي — ٣١
- من عيد الهجرة إلى عيد المولد — الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي — ٣٧
- الهجرة النبوية أسبابها ونتائجها — الدكتور أحمد الحجي الكردي — ٤٣

إلى رحمة الله

- العلامة محمود أفندي... قمة عرفت ولم تكتشف — التحرير — ٤٧

إشراقة

- هل واجهته؟ — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

ما أعظم شهر ربيع الأول؟!

عدة الشهور عند الله تعالى اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها شهر شهد أحداثًا، لها أهميتها البارزة في التاريخ الإسلامي؛ بل التاريخ الإنساني برمته، وشغلت حيِّزًا واسعًا من عناية النوع البشري، ونالت جانبًا كبيرًا من الاهتمام والتركيز.

ففي مثل هذا الشهر المبارك ولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان ذلك تحولا لافتًا في مجريات الأحداث في مكة المكرمة، وفي جزيرة العرب، وفي العالم البشري كله في الأيام اللاحقة. وكان مولده مفتاحًا لأبواب الخير والصلاح والنور والسرور والحبور، وبشرى لإغلاق باب الشر والفساد والعثو، و عبادة العباد، وعبادة الأحجار والأشجار والأصنام: أصنام الدم و اللحم. وكان مولده فجرًا جديدًا درج من ظلمات الكفر والشرك والظلم والطغيان. وكان مولده شمسًا أذابت أشعّتُها اللامعة الساطعة الوهاجة طلاء الباطل وزخارفه. و كان مولده ﷺ في هذا الشهر على الأرجح، واختلفوا في يومه على أقوال: الثاني أو التاسع أو العاشر، أو الثاني عشر منه، في يوم الاثنين. روى مسلم في صحيحه عن أبي قتادة رضي الله عنه، وفيه: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ».

وثاني هذه الأحداث البارزة هجرةُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى المدينة المنورة بعد ما ضاقت عليه- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلى أصحابه الضعفاء المغلوبين على أمرهم أرضُ مكة على رحبها. وانطلقت قريش بقضها وقضيضها مدفوعةً من عقلية يغلبها الحماقة والغباوة و الثأر لأصنامها- للقضاء على الإسلام وأهله ونبيه، وهبَّت لتصبَّ عليهم من الويلات والألاقي ما يقشعر منه الجلود، وتنخلع الأفئدة، وتبلغ القلوب الحناجر. وابتَلَتْهُمْ قريشٌ بالخوف والجوع، و فتنتْهم في أموالهم وأولادهم، وعذبتهم في نفوسهم وأجسادهم. ثم خاضت معهم- المسلمين- معارك حمراء، وصدامات دموية يرقص فيها الموت رقص الحدث الغرير، والشاب السفيه.

كانت هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة المنورة تشكل حدثًا تاريخيًّا عظيمًا، ونقطةَ تحولٍ جذري: من قلة إلى كثرة، ومن هُون إلى عز، ومن ضعف إلى قوة، ومن ضياع إلى منعة و ركن من الأركان شديد، ومن خوف إلى أمن، ومن اضطراب إلى طمأنينة. وكانت الهجرة بؤرة الصراع بين الحق والباطل، وأم الأحداث، واجهت فيها الدعوة الإسلامية أخطر المواقف وأشدها على الإطلاق؛ إذ همت قريش بالقضاء على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تأمن انتشار الدين الذي يُسَفِّهُ أحلامَهم، ولاتقوم له قائمة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. واجتمعت أشراف قريش و صناديدها، ووافاهم الشيطان في صورة شيخ نجدي في دارالندوة، ليتدبروا أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذهبوا مذاهب، ورأوا آراء في التخلص منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أشار بعضهم بأن يأخذوا من كل قبيلة شابًّا يافعًا جلدًا ثم يعطوه سيفًا باترًا فيضربوا ضربةَ رجل واحدٍ، فيتفرق دمه في القبائل، فلايسع بني هاشم أن يحاربوا قريشا كلها، فإذا أرادوا ذلك قبلوا العَقل. فكان هذا الرأي هو الذي تفرقوا عليه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. فعصمه الله تعالى من شرهم وغائلتهم، وكان وعدًا عليه حقًّا أن ينصره، ويصونه ويحفظه من أعدائه. وخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليلة اجتمعوا على بابه، ينتظرون منامه حتى يثبوا عليه ويقتلوه ، وأخذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلايرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:١-٥، ٩].

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأحد غرة المحرم الحرام ١٤٤٤هـ=٣١/يوليو ٢٠٢٢م)

الهجرة ... دروس في البذل والتضحية

يعيش المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من الاضطهاد والتضييق والقتل والتشريد، وتكميم الأفواه، وكبت الحريات ألوانًا وصنوفًا تتجدد مع مرور الأيام والسنين، ويتفنن فيها أعداؤهم وأعداء الإنسانية بما يمليه عليهم عدو الإنسان الشيطان الرجيم الملعون من رب العالمين. وفي مثل هذه الأوضاع الحالكة المدلهمة يمر بالمسلمين ذكرى حدث يشكل منعطفًا هامًّا في تاريخ الدعوة الإسلامية الأولى، وهو حدث هجرة النبي ﷺ من مكة أحب البلاد إليه، وأحب أرض الله إلى الله سبحانه و تعالى، ذلك البلد الأمين الذي شهد مدارج طفولة النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصباه، وشبابه و كهولته، وجزءًا كبيرًا من شيخوخته، البلد الذي له فيه ذكريات عزيزة كثيرة، بعد أن شدَّد أهلها الخناق عليه، وعلى الدعوة الإسلامية، فضاقت عليه أرض مكة بما رحبت. ولم يهاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من مكة فرارًا مما كان يصبه عليهم أهلها من النكبات والآلام والفظائع التي تقشعر منها الجلود، وينخلع لها الفؤاد، وتذرف منها العيون بدلا من الدموع دماءً، وإنما هاجروا إلى المدينة المنورة بحثًا عن أرض تصلح لأن تستغلظ فيها الدعوة الإسلامية وتستوي فيها على سوقها، وتؤتي ثمارها المرجوة من إخراج عباد الله تعالى من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وينتشر الخير الذي انبثق نوره من غار حراء، هاجروا إلى من وقفوا بجانب الدعوة الإسلامية الخيرة النيرة، إلى الأنصار الذين عرضوا على المهاجرين أن يقاسموهم أموالهم وأراضيهم حتى أزواجهم، وأحبوا مَن هاجر إليهم على عكس ما تمكن في قلوب القبائل من الانزعاج والتحرج ممن يهاجر إلى ديارهم لمضايقتهم؛ وآثروهم بأموالهم ومنازلهم وأراضيهم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.

وهنا يجب أن يتذكر المسلمون المواقف الخالدة التي وقفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه خلال الهجرة وقبلها، مواقف البذل والتضحية والفداء.

فهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد الهجرة إلى المدينة كما هاجر غيره من مسلمي مكة، فيأمره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتريث حتى يرافقه في الهجرة،

ويعرض عليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راحلة عند الهجرة، فيأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بالثمن، لندع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- تحكي هذا البذل والفداء من أبي بكر فتقول: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين وهما حرتان»، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين، وتجهز أبو بكر مهاجرًا، فقال له رسول الله-ﷺ-: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن». فقال أبو بكر: وترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم، فحبس أبوبكر نفسه على رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لصحبته، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر؛ قالت عائشة: فبينا نحن جلوس يومًا في بيتنا في نحر الظهيرة، فقال قائل لأبي: هذا رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مقبل متقنعا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: فداه أبي وأمي! إن جاء به في هذه الساعة إلا لأمر! قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك»، قال أبو بكر: إنما هو أهلك بأبي أنت يا رسول الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنه قد أذن لي بالخروج»، فقال أبوبكر: فالصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، فقال أبو بكر: بأبي أنت يا رسول الله، خذ إحدى راحلتيّ هاتين. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بالثمن»[1].

وهذا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينام في فراشه ليلة الهجرة و خروجه من بيته إلى غار ثور، وقد عزمت قريش على تنفيذ خطتها المدروسة بإتقان وإمعان، بقتله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحاط الشبان الذين تولوا كبره حين يخرج إليهم، ولم يقتحموا داره مع قصر الجدار؛ لأن بعضهم قال حين هموا به: «والله إنها لسبة في العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا سر حرمتنا». فأصبحوا وهم ينتظرون خروجه من البيت حتى ينفذوا الجريمة المبيتة عن مشورة و رأي. وكانوا يدعونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمينًا، وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا استودع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه لما يعلم من أمانته وصدقه. وكان عند النبي ﷺ تلك الليلة الشيء الكثير من تلك الودائع. فخلَّف عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليؤدي عنه الودائع إلى أصحابها، قبل أن يغادر مكة إلى المدينة المنورة، وقال له: نَم على فراشي، وتَسَجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنَم فيه؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه

[1] السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان ٢٨/١.

منهم، وكان رسول الله -ﷺ- ينام في برده ذلك إذا نام[٢]. وقال في خلاصة الوفاء: «فلن يخلص إليك منهم أمر، فرد هذه الودائع إلى أهلها، وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته»[٣]. فانصاع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخضع له طيبةً به نفسه. لنتذكر كيف أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه؛ فقد كان على علمٍ بأنه على كعب قوسين أو أدنى من رماح المشركين وسيوفهم، كأنها الحيات تتلمظ لتنهش فريستها، وأنه يشق عليه أن يخلص بنفسه من براثن هؤلاء المتربصين للنبي ﷺ المنتظرين خروجه، ليضربوه ضربةَ رجل واحدٍ، فيتفرق دمه في قبائل مكة، وباتوا يظنونه -عليًّا- محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ينظرون إليه من خلل الباب، فإنهم لو علموا أنهم قد خُدعوا بعلي رضي الله عنه، الذي نام في فراشه، اشتاطوا غيظًا، ولم يكن يمنعهم شيء من أن يشفوا غضبهم بقتله رضي الله عنه، فقد كان الموقف على غاية من الحرج والخطورة، والموت يرقص فيه. فكان علي رضي الله عنه- ذلك الفتى الشجاع المؤمن المصدق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أول شاب فدائي في الإسلام.

وهذا صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينطلق هو و رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختفين عن أبصار أهل مكة، ليلجؤوا إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب، وكان أبوبكر رضي الله عنه لايأمن على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأخطار و المكاره. فكان يتقدم رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينًا ويتأخر عنه حينًا آخر. يقول محمد بن سيرين: ذكر رجال على عهد عمر، فكأنهم فضَّلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر فقال: والله، لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر! لقد خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة انطلق إلى الغار، و معه أبو بكر فجعل يمشي ساعةً بين يديه وساعةً خلفه. حتى فطن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : يا أبا بكر، ما لك تمشي ساعةً خلفي، وساعةً بين يدي؟ فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: يا أبا بكر، لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟ قال: نعم، والذي بعثك بالحق[٤].

وفي دلائل النبوّة: فجعل مرّة يمشي أمامه، ومرّة خلفه، ومرّة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما هذا يا أبا بكر، ما

[٢] سيرة ابن هشام ٢/ ٩١.

[٣] تاريخ الخميس ١/ ٣٢٤.

[٤] دلائل النبوة للبيهقي،٢/ ٤٧٦.

أعرف هذا من فعلك»؟ فقال: يا رسول الله، أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك. وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خلع نعليه فى طريق الغار، وكان يمشي على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثرهما على الأرض حتى حفيت رجلاه، فلما رآه أبو بكر و قد حفيت رجلاه، حمله على كاهله، وجعل يشتد به حتى أتى به فم الغار، فأنزله[٥].

ويبدأ أبو بكر بدخول الغار مخافة أن يصاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذى فيه، فيقول أصحاب السير: «إن أبا بكر دخل الغار قبل رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليقيه بنفسه، وأنه رأى جحرًا فيه، فألقمه عقبه؛ لئلا يخرج منه ما يؤذي رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فجعلت الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه، فجعلت دموعه تتحدّر. وفي رواية: فدخل رسول الله-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- و وضع رأسه في حجر أبي بكر فنام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك فسقطت دموعه على وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقال: مالك يا أبا بكر؟ فقال لُدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله-ﷺ- فذهب ما يجده». رواه رزين[٦].

وروى ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن أبي بكر أنهما لما انتهيا إلى الغار إذا جحر فألقمه أبو بكر رجليه. قال: «يا رسول الله، إن كان لدغة أو لسعة كانت بي». وروى ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: «لما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار، قال أبو بكر: يا رسول الله، لا تدخل الغار حتى أستبرئه. فدخل أبو بكر الغار، فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن إصبعه و يقول:

هل أنت إلا أصبع دميت

وفي سبيل الله ما لقيت[٧].

وبعثت قريش الطلب في أعلى مكة وأسفلها، وأرسلوا القافة في كل وجه، حتى وصل الذي خرج نحو غار ثور، فوجد أثره به، فلم يزل يقتصه حتى انتهى إلى ثور. ولما رأى أبو بكر القافة اشتد حزنه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا على نفسه، فما أهون على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذل نفوسهم دون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولكن على الرسول وعلى دعوته ورسالته التي جاء بها من عند رب العالمين، حتى قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له- رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إن قُتلتُ أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكت الأمة. وقال

---

(٥) دلائل النبوة للبيهقي،٢/ ٤٧٧.

(٦) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ١/ ١٧٤.

(٧) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، ص ٣/ ٢٤٠.

الحسن البصري: وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمًا يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله، ما على نفسي أئل؛ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. ولما رأى الرسول ما نزل بأبي بكر من الهم والقلق، قَوَّى قلبه ببشارة تتلى ما بقي الليل والنهار: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

وفي الصحيح عن أنس قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا، فقال له رسول الله -ﷺ-: «ما ظنك باثنين، الله ثالثهما»[٨].

ولقد أحسن حسان حين قال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد

طاف العدو به إذ صاعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا

من الخلائق لم يعدل له بدلا[٩].

فلما هدأ الطلب خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر حتى أتيا قباء، قبل دخولهما المدينة، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة، وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأول، فخرجوا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو في ظلّ نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنّه. وقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممّن لم ير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيّي أبا بكر و يرحب به، وهو يظن أنه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أصابت الشمس رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناس رسولَ الله عند ذلك.

وعند ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عويم: أناخ إلى الظل هو وأبو بكر، والله، ما أدري أيهما هو حتى رأينا أبا بكر ينحاز له عن الظل فعرفناه بذلك[١٠].

وكم من مواقف أخرى للبذل والعطاء والفداء من أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل ذلك يحمل في طياته دروسًا صادقة مخلصة للأمة الإسلامية بالأمس واليوم وغدًا مهما ضاقت على المسلمين الأرض برحبها.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

(تحريرًا في الساعة الثامنة صباحًا من يوم الأحد: غرة المحرم الحرام ١٤٤٤هـ = ٣١/يوليو ٢٠٢٢م)

---

[٨] صحيح البخاري،برقم [٣٦٥٣].

[٩] شرح الزرقاني على المواهب ١٢٤/٢.

[١٠] شرح الزرقاني على المواهب،٢/ ١٥٠.

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

أي لايكتفي بالعفو عن التقصيرات التي تصدر بمقتضى البشرية؛ بل يجزيهم أجرًا عظيمًا.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

الآية تشير إلى عقوبة الفريق- المقابل الذي سبق ذكره في الآية السابقة- الذي كفر بالحقائق القرآنية الصريحة والواضحة أو كذَّب بالمعالم التي أرشد الله تعالى إليها لتهديهم إلى الحق والصدق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بعد أن ذكَّرَ بالنعم العامة يذكِّرُ بالنعم الخاصة.أي أن كفار قريش ومن والاهم بذلوا ما في وسعهم لإيذاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقضاء على الإسلام، ولكن حَالَ فضل من الله تعالى دون نجاح مساعيهم ومكايدهم. ويستوجب ذلك أن يحفظ المسلمون أعداءهم من كل ظلم واعتداء وإن تغلبوا عليهم، ولايفوتهم العدل والإنصاف جريًا وراء عواطف الثأر والانتقام والانتصاف منهم. كما أكدت الآيات السابقة ذلك. وقد يتوهم البعض أن درس المسامحة البالغة هذا مع هؤلاء الأعداء الألدّاء قد يضر مبادئ السياسة وأصولها، فإن هذا الموقف اللين قد يشجع الأشرار وذوي الطوية الخبيثة على المسلمين، فدفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١١].

أي أن أعظم سياسة المؤمن هو التقوى والتوكل على الله تعالى، ومعنى تقوى الله تعالى أن يصفي معاملته الظاهرة والباطنة معه، ويفي بما وعده كل الوفاء، ثم لاعليه أن يخاف أحدًا. وتحدثت الآية التالية – ليكون عبرة لنا- عن قوم تجرؤوا على الله تعالى، ونقضوا عهدهم، فكيف ذلوا وهانوا واستكانوا.

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

أي لايختص أخذ هذا العهد بالأمة المحمدية؛ فقد أخِذ مثله من الأمم السابقة.

فائدة: اختار موسى عليه السلام عشرة نقباء من عشرة أسباط بني إسرائيل، وحكى المفسرون أسماءهم عن التوراة، كان من واجبهم أن يأخذوا قومهم بإيفاء الوعد، ويقوموا عليهم. ومن العجائب أنه تم تعيين عشرة نقباء حين بايع الأنصار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليلة العقبة قبل الهجرة، وناب هؤلاء العشرة عن أقوامهم في بيعة النبي ﷺ، روي عن جابر بن سمرة في حديث طويل أن الخلفاء الاثني عشر الذين بشر بهم هذه الأمة هم على عدد نقباء بين إسرائيل. وحكى المفسرون عن التوراة أن الله تعالى قال في حق إسماعيل عليه السلام: أخرج من ذريتك اثني عشر نقيبًا. ولعلهم الذين ورد ذكرهم في حديث سمرة رضي الله عنه.

فائدة: وهذا الخطاب إما موجّهٌ إلى الاثني عشر نقيبا هؤلاء، أي قوموا بواجبكم، فلكم نصرتي وعوني أو يكون الخطاب موجَّهًا إلى بني إسرائيل كلهم، أي أنا معكم، أي لاتعدوني بعيدًا منكم في حال من الأحوال، وأنا أرى وأسمع ما تقومون به سرًّا أو علانية، وفي أي مكان وفي أي وقت، فلا تأتوا شيئًا إلا وأنتم في يقظة.

فائدة: أي تصدقون من يأتي بعد موسى عليه السلام من الرسل، وتوقرونهم، وتنصرونهم على أعداء الحق بأنفسكم وأموالكم.

فائدة: ومعنى إقراض الله تعالى هو الإنفاق في نصرة دينه وأنبيائه. كما أن المقرض يأمل أن ماله سيعود إليه، ويرى المستقرض ردَّه إليه واجبًا على نفسه. فما ينفقه المرء مما أعطاه الله تعالى في هذه الدنيا، لن يضيع ولن ينقص، وأوجب الله تعالى على نفسه تفضلا ورحمة منه- لا كرهًا وجبرًا عليه- أن يرده عليكم متمثلا في نفع عظيم.

فائدة: المراد بـ(قَرْضًا حَسَنًا) الإخلاص في الإنفاق، والإنفاق مما تحبونه ومن طيبات أموالكم.

فائدة: أي إذا كثرت الحسنات تغلبت على السيئات. وإذا سعى المرء سعيه في الوفاء بعهد الله تعالى، نفى الله تعالى عنه النقائص، وبوأه فيما فيه رضاه وتقربه.

فائدة:(فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ): أي من خان الله تعالى واستعد للكفر والغدر رغم هذا العهد الصريح الموثق، فاعلموا أنه قد ضل طريق النجاح والنجاة. لاتدري في أي هاوية الهلاك يقع؟ وما ورد أخذ العهد عليه من بني إسرائيل هنا هي: الصلاة،

والزكـاة، والإيـمان بالأنبيـاء، ونـصرتهم بـالنفس والمـال. وأولها عبـادة بدنيـة، والثانيـة عبـادة ماليـة، والثالثة قلبية ولسانية معًا، والرابعة تكملة خلقية للثالثة في الواقع. وكأنه بذكر هذه الأمور أشار إلى أنـه يجب طاعـة الله تعـالى والوفـاء بالعهـد بنفسكم ومـالكم، وقلـبكم وقـالبكم. ولكـن بنـي إسرائيـل نقضوا هـذه العهـود واحدًا بعـد واحدٍ، ولم يـدوموا على شيء منها، فما أدى إليه نقض هذه العهود أشار إليه الآية التالية.

فَبِمَـا نَقْـضِهِم مِّيـثَٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَـا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِـعُ عَلَىٰ خَآئِنَـةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَـنْهُمْ وَٱصْـفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

معنى مادة (ل ع ن) الطرد والإبعاد، أي بسبب نقـضهم العهـد وخيـانتهم أبعـدناهم مـن رحمتنـا وألقيناهم بعيدًا. وجعلنا قلوبهم قاسيةً. ويفيد قوله: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ) [المائدة:١٣] بأن سبب لعنهم وقساوة قلوبهم هو نقض العهد وعدم الوفاء الذي هو فعلهم. وبما أن ترتيب المسببات على الأسباب من فعل الله تعالى، فنسب إليه سبحانه (وَجَعَلْنَا قُلُوْبَهُمْ قٰسِيَةً) [المائدة:١٣].

فائـدة: أي يحرفـون كـلام الله تعـالى، حينًـا في لفظـه، وآخـر في معنـاه، وثالثًـا في تلاوتـه. فـأنواع التحريف هذه كلها قد شرحها القرآن الكريم وكتب الحديث. واضطر نصارى أوربا اليوم إلى الاعتراف ببعضها.

فائـدة: أي كـان عليهم أن يستفيدوا من هـذه النـصائح الغاليـة، المتـوفرة في ظهورخـاتم الأنبيـاء وبعض المهمات الدينية الأخرى في كتبهم، ولكنهم أنساهم ذلك كله غفلتُهم وشرورهم؛ بل ضيعوا الـشطر الهـام مـن هـذه النـصائح أيـضًا، ثـم إنهـم لايتفاعلون ولايتأثرون بالنصائح والأمور المفيدة التي تتلى عليهم على لسان خاتم النبيين. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: جر عليهم نقض العهد أمرين: اللعنة وقساوة القلب، اللذين أديا إلى أمرين: تحريف كلام الله تعالى، وعدم الانتفاع بالذكر، أي مسِخت أذهانهم وعقولهم من جراء اللعنة حتى استعدوا بكل وقاحة وفساد عقلي لتحريف الكتب السماوية. ومن جانب آخر لما قست قلوبهم من شؤم نقض العهد، فقدوا صلاحية قبول الحق والتأثر بالنصيحة، فضيعوا بذلك القوتين العلمية والعملية.

فائدة: أي غدرهم وخيانتهم مستمران ليومنا هذا، وسيستمران لاحقًا. فلاتزال تطلع على بعض غدرهم ومكرهم ودهائهم بشكل دائم.

فائدة: أي عبد الله بن سلام وغيره ممن دخل في الإسلام.

فائـدة: أي إذا كانـت هـذه سـنتهم القديمـة، فإنـك في غنـى عـن مناقـشتهم في كـل أمـر جزئـي، وكشف خيانتهم فيه، فدعهم واصفح عنه، وقابل

شرهم بالعفو والإحسان إليهم. فلعلهم يتأثرون به. قال قتادة وغيره: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْاٰخِرِ) [التوبة:٢٩]، ولاحاجة إلى القول بالنسخ، فإن الأمر بالقتال لايستلزم عدم العفو والصفح وتأليف قلب هذه الأمة في حين من الأحيان وفي مناسبة من المناسبات.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤

النصارى من (نصر)، ومعناه العون. وهي نسبة إلى(ناصرة) قرية في الشام، سكنها المسيح عليه السلام. ولذا سمي بـ(المسيح الناصري). والذين قالوا: إنا نصارى كأنهم ادعوا أنهم على الدين الإلهي الحق، وناصرون للرسل، ومن أتباع المسيح الناصري. ورغم هذا الادعاء اللساني والمباهاة اللقبية كانوا من الدين على ما أشار إليه القرآن لاحقًا.

فائدة: أي أخذ منهم العهد كما أخِذ من اليهود، ولكنهم لم يكونوا على أقل من سابقيهم في نقض العهد وعدم الوفاء به، فلم ينتفع هؤلاء بدورهم بهذه النصائح الغالية، التي يقوم عليها النجاة والنجاح الأبدي؛ بل ضيعوا الشطر الخاص من التاريخ بالنصائح التي تشكل العمود الفقري للدين ولبه في الواقع.

فائدة: أي قامت بين النصارى أنفسهم أو بين النصارى واليهود عداوات وخلافات أبدية. وترتب ما كان يترتب على تضييع الكتاب السماوي ونسيانه من النتائج والعواقب. أي لما حُرموا نور الوحي الإلهي اشتبكوا بعضهم مع بعض في ظلمات الأوهام والأهواء. فلم يبق دين، وإنما بقي الخلاف في الدين. فنشأ منه فرق وطوائف اصطدمت بعضها مع بعض في الظلمات. وهذا الصدام الطائفي تحوّل في آخر الأمر إلى عداوة وبغضاء شديدة. ولا شك أن المسلمين اليوم يعيشون تفرقًا وتشتتًا وصدامًا طائفيًّا على أشده. ولكن لازلنا – ولله الحمد- محتفظين بالوحي الإلهي والقانون السماوي من غير وكس ولا شطط، فلاتزال وستظل طائفة كبيرة من المسلمين- رغم هذا الخلاف والشقاق- قائمة على الحق. على عكس الاختلافات والشقاق بين اليهود والنصارى، أو ما بين البروتستانت، والكاثوليك وغيرهما من الطوائف والفرق حيث لم تعد واحدة منها اليوم على طريق الحق والصواب، ولن تعود إلى ذلك حتى يرث الله تعالى الأرض وما عليها؛ فإنهم ضيعوا – بسبب ظلمهم وسوء أعمالهم – نور الوحي الإلهي الذي لايسع أحدًا بدون أن يتوصل إلى المعرفة الصحيحة بالله تعالى وقوانينه، فما داموا متمسكين بهذه التوراة المحرفة، استحال عليهم إلى يوم القيامة أن يخرجوا من ظلمات هذه الاختلافات

العمياء الباطلة، والتفرق والبغض والعناد، وأن يروا سبيل الحق، وأن يسلكوا سبيل النجاة الأبدية. وأما من يستهزئ اليوم بالدين وخاصة النصرانية، والذين احتفظوا بالمسيحية أو التوراة الحاضرة لمجرد تحقيق عدد من الأهداف السياسية، فإن هذه الآية الكريمة لاتتعرض لهم، ولو سلمنا شمول الآية لهم، فلايخفى على أهل العلم والمعرفة ما يجري بينهم من العداوات، والمؤامرات الخافية، والمحاربات الظاهرة العلنية.

فائدة: أي لايفارقهم هذه الخلافات والبغض والعناد ما داموا على قيد الحياة. وقوله: (اِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ) المراد به هنا ما يجري في خطاباتنا من أن فلانا لايرعوي عن فعلته إلى يوم القيامة، ولايعني ذلك أنه يعيش ويأتي هذه الفعلة إلى يوم القيامة؛ بل المراد أنه لو عاش إلى يوم القيامة لم يرعوِ عن هذه الفعلة، فكذلك ما جاء في الآية من قوله: (اِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ) لايدل على أن اليهود والنصارى يعيشون إلى يوم القيامة، كما فسر به بعض المبطلين في زماننا.

فائدة: أي سيعلمون عواقب فعلتهم بصورة كاملة في الآخرة، وفي الدنيا ببعض الأحداث والوقائع.

يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾

هذا خطاب لليهود والنصارى بأنه قد جاء الرسول الخاتم الذي لاتزال البشارة بظهوره في كتبكم بصورة أو أخرى رغم ما دخلها من التحريف والتبديل، والذي ألقى الله تعالى في فيه كلامه، والذي أكمل الحقائق التي فارق المسيح قبل أن يكملها، ويبين هذا النبي الخاتم ما تكتمونه وما تحرفونه من التوراة والإنجيل، ويعفو عما ليس إليه كبير حاجة.

يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾

ولعل المراد بالنور هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، والمراد بالكتاب المبين هو القرآن الكريم، أي قل لليهود والنصارى- الذين ضيعوا نور الوحي الإلهي، ووقعوا في ظلمات الأهواء والآراء، وفي هاوية من الخلاف والشقاق، ولاسبيل لهم إلى الخروج منها – والوضع هذا – إلى يوم القيامة،- قل لهم: قد جاءكم أعظم نور من الله تعالى، فإن كنتم تريدون سير طريق النجاة الأبدية، فاتبعوا هذا النور، تجدون سبل السلامة مفتوحة، وتخرجون من الظلمات إلى النور من غير ريب وتردد. وتسلكون الصراط المستقيم من غير تكلف إذا أخذتم بيد من رضيتم باتباعه.

لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ

أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧

أي: لا إله غير المسيح. قالوا: هذا عليه الفرقة اليعقوبية من النصارى، التي قالت بحلول الله تعالى في قالب المسيح- والعياذ بالله-، أو بتعبير آخر: لما قالت النصارى بألوهية المسيح، بجانب إقرارهم باللسان بالتوحيد، أي أن الله واحد، كان من لوازم هذين الادعاءين أنه لا إله غير المسيح عندهم. وأيًّا كان، لاشك في أن هذه العقيدة كفر بواح.

فائدة: هَب أن الله القادر القهار أراد أن يهلك المسيح وأمه مريم وكل من على الأرض قديمًا وحديثًا مرة واحدةً، أفرأيتم من يمنعه عنه، ويحول دونه؟ أي هَب أن الإنس أولهم وآخرهم جمعهم الله تعالى في مكان واحد، ثم أراد أن يهلكهم مرة واحدة، عجزت قوتهم الجماعية عن تأجيل إرادة الله تعالى ولو عشية وضحاها؛ فإن قدرة المخلوقات منحة ومحدودة، وعاجزة محضة أمام قدرة الله تعالى الذاتية اللامحدودة. ويعترف بها حتى من رد عليهم هذا الخطاب الرباني، بل المسيح ابن مريم أيضًا، الذي اتخذوه إلهًا، فقد ورد في إنجيل مرقس قول المسيح: «يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ». أي كأس الموت.

فإذا كان المسيح عليه السلام – الذي تقولون : إنه إله-، وأمه – التي تزعمونها أم الإله- ومن في الأرض جميعًا ثبت عجزهم جميعًا أمام مشيئة الله تعالى وإرادته، فما أقبح وأوقح وأجرأ وصف عيسى أو أمه أو من في الأرض جميعًا بالألوهية. وحملنا (الهلاك) في الآية على الموت، وشرحنا كلمة (جميعًا) بعض الشرح، و معناها الذي بينا يوافق ما صرح به أئمة العربية. ويمكن عدم حمل الهلاك في الآية على الموت، كما قال الراغب: إنه قد يراد به الإهلاك، وقد يحمل على فناء الشيء وزواله مطلقًا، كما في قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَه) [القصص:٨٨]. ومعنى الآية حينئذ: لو أراد الله تعالى أن يُفني المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا، فمن يحول دون إرادته، يقول الشاعر الفارسي ما معناه:

هو الملك الذي يفعل ما يشاء

يهلك ويفني العالم كله في لحظة واحدة

يقول الشاه [عبد القادر رحمه الله]: يخبر الله تعالى عن الأنبياء بمثل هذه الأشياء كيلا يرفعهم أممهم إلى منزلة الألوهية، وإلا فإن النبي يستحق أن يُخاطَب بمثل هذا الخطاب نظرًا إلى منزلته العالية وجاهه عند الله تعالى.

فائدة: ما شاء، وكيف شاء، فمثلاً خلق المسيح من غير أب، وخلق الحواء من غير أم، و خلق آدم من غير أب وأم.

فائدة: لايغني عنه قوة أحد، فالأخيار والأبرار كلهم عنده سبحانه عجزة مسلوبو القوة.

* * *

الهجرة بين التفسير المادي والروحيّ

بقلم: الأستاذ/البهي الخولي

١ – لماذا هاجروا؟

يستقبل المسلمون هذه الأيام غرة عام هجري جديد ويحتفلون في مطلع كل عام بذكرى تلك الهجرة، فيذكرون ما يذكرون من آثارها، ويفيضون في تفصيل حوادثها، كأنك ترى أصحابها، وتنتقل معهم من مكة، حيث الجو المخنوق الموبوء، إلى مدينة الأنصار، حيث ترى من سماحة الاستقبال، وفرحة اللقاء، وكرم الإيثار ما لم يسجل التاريخ مثله لجيل من الأجيال، أو لأمة من الأمم.

وتسأل نفسك: لماذا هاجر هؤلاء المهاجرون هجرتهم تلك العجيبة الرائعة؟.. هل كانت الشقة يسيرة فأغراهم قرب المسافة برحلة لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب؟

لم تكن تلك الرحلة يومئذ بالأمر الهين في عصر كانت الأسفار فيه تقاس بالأيام والليالي.. وكان المسافر من مكة إلى المدنية يستغرق في سفره عشرة أيام وعشر ليال، وهي مدة إذا مثلت لخيال البدوي من أهل تلك الحقبة، وثب له معها بعد الشقة ووعورة الطريق، ووحشة الغربة السحيقة النائية.

وتسأل سؤالا، أو أسئلة أخرى.

هل كانوا من ذلك الطراز الذي يهون لديهم مفارقة الأوطان، وما فيها من أهل وأصدقاء وذكريات عزيزة حبيبة؟

ويجيبك واقع هؤلاء أنهم هاجروا من بلدتهم العزيزة الحبيبة، وهي أحب أرض الله إليهم، وقلوبهم تلتفت إليها، ولما استقروا بدار هجرتهم الكريمة لم تستقر مشاعرهم، فكان الحنين لا يفتأ ينازعهم إليها. إلى ربوعها، وبطاحها، وهضابها وشجرها ونبتها، وكان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرًا ما يرفع عقيرته متنهدًا أسيفًا بقوله.

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بوج[١]، وحولي إذخر[٢] وجليل[٣]

وهل أردن يوما مياه مجنة[٤]

وهل يبدون لي شامة[٥] وطفيل[٦]

فليست الشقة – إذًا – يسيرة، وليس القوم ممن يهون لديهم مفارقة الأهل والوطن.. فماذا نزع بهم إلى تلك الهجرة النائية الشاقة على النفس والبدن؟

هل كانت لهم هناك مغانم منظورة أو كنوز مذخورة، أو أموال موعودة، أو أرض طيبة مأنوسة بما شاءوا من الدور والأهل والأصدقاء؟ ...

ويجيبك التاريخ على سبيل اليقين: إنه لم يكن لهم بدار هجرتهم أي عرض منظور أو مذخور، ولا أي غرض مما يثير الناس، ويبعث هممهم إليه في كل أفق.

وإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فهل كانوا يقيمون بمكة على هوان وضيم، أو على عيش جاف خشن، فحملهم ذلك على أن يفتجعوا على عادة البدو – منازل ذات رفاهة وسعة؟... وهذا السؤال أبعد الاحتمالات عن أن يكون سببًا لتلك الرحلة الفذة الممعنة في الغرابة والاغتراب، فقد كان المهاجرون أغلبهم من ذؤابة قريش شرفًا ومنعة، ورفعة بيت، ورخاء حال، وكل قارئ للسيرة و تاريخ العرب يعرف شرف البيت الذي ينتمي إليه محمد ﷺ، والبيوت التي ينتمي إليها أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم... ولم يكونوا على عيش خشن جاف، فكان بواديهم بيت مبارك تهوي إليه أفئدة من الناس، وتجبى إليه ثمرات كل شيء.. وكانت لهم رحلتا الشتاء والصيف، فآمنهم الله بذلك كله من خوف، وأطعمهم من جوع.. ولم يكن المهاجرون أقل أهل هذا الوادي مالا؛ بل كانوا من أوسطهم حالا، وأيسرهم غنى وسعة، وتذكر كتب السيرة أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أخذ معه يوم هاجر خمسة آلاف، هي بقية عشرات ألوف كان يملكها فأنفقها كلها على الدعوة، ولا سيما في شراء العبيد الذين كان سادتهم يعذّبونهم على إيمانهم.

٢– بين المادة والروح..

هذه أسئلة أوردناها وأجبنا عليها من واقع التاريخ، ولا يستطيع أشد الناس جدلا أو مكابرة أن يزعم أن الهجرة تمت تحت إغراء أو ضغط أي ظرف من الظروف التي جعلناها موضوعًا لأسئلتنا.

وبيننا الآن فلسفة تفسر أحداث التاريخ على ضوء العوامل المادية أو الاقتصادية وحدها، فكل أحداث التاريخ وتطورات البشر ونظم الحضارة التي تنقل فيها الناس إلى اليوم، إنما صنعتها – في رأيهم – عوامل اقتصادية حسية، بإملاء الاقتصاد، ونداء حاجاته، وتوجيه ضروراته.. وهي فلسفة مستفيضة ينتهون منها إلى مقررات معينة، منها: الإيمان بالمادة الحسية وحدها، وفعل العوامل الاقتصادية في تطوير الإنسان ومنحه ما يكون له من مقومات الضمير من الآداب والمثل ونحوها... مع إنكار ما عدا ذلك من العوامل الروحية وآثارها، وادعاء أنها خرافة.

ونحن نسلم بأثر المادة وفعل العوامل الاقتصادية في حياة الإنسان، وليس من كرامة العقل أن نجادل في واقع يلابسنا ونلابسه، ونلمس آثاره في أنفسنا ومجتمعنا.. ولكنا مع ذلك نسأل باسم كرامة العقل أيضًا: هل العوامل الاقتصادية وحدها هي التي تصنع للإنسان تاريخه، وترسم له طريق تطوره، وتملي على أفراده وجماعاته ما يجب أن يكون؟

إن حادث الهجرة يتولى الإجابة عن ذلك، فقد

سقناه وحاولنا أن نجد له تفسيرًا على ضوء أوضاع المادة وعوامل الاقتصاد، فلم نجد فيما عرفنا من كتب السيرة ومراجع التاريخ سببًا واحدًا يرده إلى منطق هذا المذهب ومقرراته.

ومن المسلم به أن الهجرة من حوادث التاريخ التي لا حيلة في إنكارها، أو التشكيك في حدوثها، فليس لها من تعليل – إذا – سوى عوامل أخرى غير حسية، هي العوامل التي اقترنت بظروف الهجرة وملابساتها بدءًا وختامًا، وكانت هي الباعث وهي الغاية... ولسنا نجد شيئًا اقترن بتلك الظروف ولابسها سوى المبادئ التي جاء بها محمد ﷺ، وآمن بها هؤلاء فغيرت ما بأنفسهم وعقولهم وقلوبهم، ونقلتهم من حال إلى حال.

كان التفكير الحسي يطغى على وجود أهل البيئة كلها، فأفسد عقولهم وأذواقهم، وعطّل ما لهم من مواهب وملكات روحية... كان هذا التفكير هو الذي يتولى لهم تصوير الحقائق الروحية، والكائنات الغيبية، فالملائكة إناث.. والآلهة حجارة.. ولله شريك أو شركاء ... وتعدد المعبودات هو الأمر الذي لا تسيغ العقول سواه﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ؟...إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ..﴾ ... وإذ تعطل في الناس وعيهم الروحي، فقد أسرع ذلك التفكير الحسي الجاهل، فملأ في النفوس فراغها الروحي، حتى سادت الخرافات والأوهام، واتخذت فيهم مكان التقاليد والعقائد.

فللجن أثر في حياة الإنسان يجب أن يحسب حسابه.. وللطير إذا أيمنت أو أشملت علاقة بما سيكون من أحداث تسر أو تسوء.. وللأزلام إذا استقسموا بها حكمها الذي تعنو العقول لفصله، وتتقرر مصائر الأرواح والأموال بأمره ونهيه.. وللكُهّان والعرافين حكومتهم التي تشد إليها الرحال، فينتهي بها الأشكال، وينزل المتخاصمون على حكمها.. ولا شيء وراء ذلك الكون الحسي، وليس للإنسان من حياة أخرى يحياها في عالم غيبي على نمط تسمو فيه أذواق الروح على أذواق البدن وأحكام المادة. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ..﴾... وإذ كان الموت هو الخاتمة التي تنهي حياة كل منهم إلى غير رجعة – على زعمهم – فقد أقبلوا على شهوات الحس يبادرونها بما ملكت أيديهم، وكانت المادة هي وسيلتهم إلى ذلك، أو هدفهم الوحيد إليه.

جاء الإسلام وتلك حالهم من مادية الفكر، والعقيدة، والذوق، والأهداف فعالج ذلك كله، وأزال عن العقل والقلب ما يغشيهما منه، وبدل الناس وجودًا بوجود.

حرر العقل وجعله عماد الاستدلال فيما يؤيد العقيدة، وجعل له الهيمنة على الحياة كلها، وتنقيتها من شوائب الوهم والخرافة... وأيقظ كرامة الإنسان

إذ لفته إلى ما له من ملكات باطنة هي معقد إنسانيته، وأنه لم يوهب تلك المواهب عبثًا أو جزافًا، إنما وهبها على قدر ليؤدي بها لنفسه وللحياة رسالة في عمل الخير، وتحقيق الحق، وإقامة سلطان الله في الأرض، وبأنه مسؤول عن رعاية تلك الملكات وإقامة منطقها فيما يأخذ أو يدع ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

ولقد نبّهه أنه – بتلك الملكات الباطنية – حقيقة روحية إنسانية باقية، وليس مجرد هيكل فإنه مصنوع من المادة، وأن الموت بالنسبة لتلك الحقيقة إنما هو انتقال بها من طور إلى طور... وأن من رسالة الإنسان أن يعد نفسه لطورها المقبل، فمن رعى لها حظها من التفكير في آيات الله، وغمر آفاقها بوجدان ذلك التفكر، وزكى ذلك وأيده بالعمل الصالح، فقد أعدها لسعادة علوية رافهة... ومن جعل حظها شهوة الحس، وعماية الهوى، وحرص الأنانية، فقد طمس على مواهبه، وأعد نفسه إعدادًا مسمومًا يذوق به الخزي في طوره المنتظر..

بهذه المعارف السليمة، والتوجيهات النفسية الدقيقة تحرر العقل، وتنبهت الملكات الروحية الباطنة، وأبصرت في الكون نفائس ودقائق غير المادة، وبدأ الإدراك الروحي يقدر زاده من الخير والتقوى، ويفاضل بينه وبين ما هنالك من أزواد حسية، ويحدد بهذه المقارنة القيم الجديدة بأن يجعلها معقد همته ومناط كرامته.

وبدأ العمل لصلاح النفس يدخل عنصرًا جديدًا، بل عنصرًا أصيلا في إقامة حياته على سمتها الحق إلى جانب اهتمامه لصلاح بدنه ودنياه.. وبدأ للإنسان تعامل مع أفق غير أفق المادة ... بدأت له أشواق إلى ما يلوح للبصيرة من أهداف قدسية في أفق المعنويات.. وبدأت تلك الأشواق تهب له عزائم منهضة نحو تلك الأهداف، وبدأ الاهتمام بأعراض الدنيا يفقد حدته، أو تنكسر ثورته في نفوسهم.. وبعبارة أخرى دخلت العوامل الروحية في حياة هؤلاء المؤمنين، لتفعل ما تفعله العوامل الاقتصادية في نفوس الآخرين. ترسم وجهتهم، وتقرر مناهجهم، وتبعث عزائمهم وتثير وجدانهم... وتصنع لهم تاريخهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، وسائر روابطهم الاجتماعية..

٣- لا مجال للتفسيرات الاقتصادية:

ذلك هو التطور الخطير أو التغير الرائع الذي أحدثه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمبادئه في نفوس هؤلاء.. ولسنا بذلك نجحد أنهم يتأثرون كسائر البشر بالعوامل الاقتصادية، ولكنا نقرر ما يجحده أنصار المادية الجدلية، إذ وصفوا العوامل الروحية بأنها وهم لا وجود لها، ورتبوا على ذلك ما رتبوا من نتائج ومقررات، فإن أيسر ما يفهم من تصرفات هؤلاء المؤمنين، ومن واقع تاريخ الحقبة النبوية عامة، أن العوامل الروحية كانت أهم عنصر له أثره البارز في توجيههم إلى جانب العوامل الاقتصادية،

بل كانت هي العنصر الوحيد ذا الهيمنة على ما عداه لاستيلائها على مشاعرهم وأفكارهم وانطباع تصرفاتهم بطابعها.

وإذا ذهبت تفسر حوادث الهجرة على ضوء مقررات المذهب الاقتصادي أعياك أن توجه حادثًا واحدًا هذا التوجيه في نسق مؤتلف مقبول(٧)، وأحسست أن كل شيء يأخذ بزمام ذهنك إلى اتجاه روحي صرف، وأن تلك الأحداث إنما تأتلف متناسقة تمام التناسق مع مبادئها التي أوحت بها ومهدت سبيلها إلى دنيا الناس وواقع التاريخ..

لقد عرض خصوم محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يعطوه المال الوفير، وأن يقيموه ملكا عليهم، وأن يزوجوه من أجمل فتياتهم من أراد، على أن يدع أو يكف عن مبادئه التي يذيعها، وهو عرض ينبثق من أذهان قوم آمنوا بالحس وحده، ولا يعجزنا أن نرى في صبغتها المادية الصارخة تفسيرها الاقتصادي الذي تتناسق به مع مالهم في ذلك من توجيه.

ولكن ماذا كان رد محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على ذلك العرض؟

لو أنه كان منبعثا إلى دعوته بمؤثرات حسية، أوأهداف مادية لوجد فيما يعرضون عليه ما يختصر له الزمن ويوفر عليه الجهد، ويرضي رغبته فيما يريد، ولكنه أجابهم تلك الإجابة الرائعة الحاسمة «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».. ولا يعجز له أن تتبين في تلك الإجابة الخالدة أنها تنبثق من ذهن غير أذهانهم، وتقدير غير تقديراتهم، وأنها تتجه إلى اتجاه غير اتجاههم.. وأن نرى فيها الاعتزاز بملكوت القيم الروحية إلى الحد الذي يزري بملك الشمس والقمر... وإنك لو وكلت إلى أشد المتعصبين للمادية الجدلية أن يفسر لك الإجابة على ضوء ما له من أصول التفسير الاقتصادي لكان من أعجز العاجزين عن ذلك.

لعله كان يقول: إن محمدًا كان يبغي مالا أوفر يأتيه من اتساع دعوته، فرفض ما عرضوا عليه انتظارًا لما سيأتي به نجاح الدعوة من الحظوظ المرموقة .. فهل ذلك من الحق؟

هل من الحق أن نسند إليه – عليه الصلاة والسلام – ذلك الفرض الجدلي، وهو الذي أتته الأموال فيما بعد، وانصبت بين يديه على حصير المسجد فكان يفرقها لساعتها حثوا بيديه في حجور الناس ثم يقوم والحجر مربوط على بطنه؟... وكلنا يعلم أنه لحق بالرفيق الأعلى ودرعه مرهونة عند يهودي على حفنات من شعير!!

ولعله يقول: إن محمدًا رفض ما عرضوا عليه من الملك، لأنه كان يبغي أن تأتيه دعوته بملك لا منة فيه لأحد عليه.. فهل ذلك من الحق وهو الذي صار فيما بعد سيد الجزيرة غير منازع فرفض أن يقوم له أتباعه وأن يعظموه تعظيم الملوك، وكان حظه من تلك الرئاسة أن قال: إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس

العبـد، وآكـل كـما يأكـل العبـد؟ ولنـدع صـاحب الرسـالة – عليـه الـصلاة والـسلام – لنقـرأ في سـير أتباعه أن أهليهم كانوا يلينون لهم القول، ويبذلون لهم الرجاء، ويعرضون عليهم العروض لكي يدعوا مـا دعـاهم إليـه محمـد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والـسلطان في أيديهم ولا سلطان معه... والعافية فيما يدعونهم ولا عافية معه.. فلماذا رفضوا، ولماذا هاجروا؟... لماذا رفـض الأشراف، وأبنـاء الأشراف أن يبقـوا عـلى العافية في أهليهم ودورهم وأموالهم، وآثروا الخروج من ذلك كله إلى نقيضه؟

أيقال: إنهم فرّوا من العذاب؟.. إنهم إنما كانوا يعـذبون ليعـودوا عـن مبـادئهم الجديـدة إلى مـا كـان عليه الآباء الأولون ولو أنهم فعلوا، لَما كان عذاب، ولما كان إلا العافية والسعة.. على أنه ما كان يعذب – غالبا – إلا من لا عشيرة له كالعبيد والغرباء، فقد عذب بلال العبد، وعمار العبد، ومن على شاكلتهما من المستضعفين، عذبوا لا بغضا لهم ولا ضيقا بهم؛ بل ليعودا إلى دين السادة الأعلين، ولهم على ذلك ما شاءوا من سعة وعافية، ولكن العبيد كانوا يحيون من مبادئهم سيادة أخرى تنبذ كل ما عرف القوم من عرض وجاه.

ولندع هؤلاء المهاجرين لما يشغلهم من أمر هجرتهم لنسأل دعاة الجدل والاقتصاد: ما بال أنصار المدينة يبذلون أموالهم، وأمتهم، ويهدفون نحورهم لرماح أعدائهم في سبيل تلك الدعوة؟.. هل وعدهم النبي على ذلك ملكا أو عرضًا كثيرا أو قليلا من عرض الدنيا؟.

لقد التقى به فريق منهم في موسم الحج على موعد عند العقبة، ودعوه إلى أن يتحول إلى مدينتهم فماذا وعدهم، أو بماذا منَّاهم؟.. لقد شرط عليهم أن يحموا دعوته مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم، فقالوا له: «وماذا لنا يا رسول الله، إذا نحن وفينا لك بما شرطت»... فلم يقل لهم: لكم ملك العرب، أو أموال الجزيرة، أو لكم من المناصب كيت وكيت؛ بل قال لهم: «لكم الجنة». فقالوا في فرح وبشر: «ربح البيع يا رسول الله، والله لا نقيل ولا نستقيل»... وهي إجابة تصور ما كان يحيا فيه القوم من أهداف وغايات، وتحتمل كل تفسير وتأويل إلا أن تفسر ببواعث المادة ورغبات الاقتصاد.

ولقد صدرنا هذه الكلمة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ﴾ (الآية). فهل يستطيع أحد أن يدلنا على سر ذلك الحب في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾.. أن الأنصاري لم يرتبط بأخيه المهاجر بأي رباط حسي سابق من نسب، أو معاملة، أو نحوها مما يظن به أنه سبب ذلك الحب ... ومن المسلم به أن المهاجر هاجر تاركًا وراءه ماله وولده وداره، وأقبل على المدينة معدما ليس معه من عرض الدنيا ما

يفرح به أنصارها، أو يفتح له قلوبهم ببسمة واحدة.

٤- بين الوهم والحقيقة

هذه أحداث معروفة، وكائنات تاريخية مقررة لا يسيغ الذهن إطلاقا أن يكون المرء فيها مستجيبًا لضغط حاجاته المادية، ولا يقر المنطق إلا أنها من فعل عوامل روحية خالصة.. وليس لذلك من معنى سوى أن العوامل الروحية حقيقة واقعة ذات أثر في توجيه المرء، وبناء المجتمع، وتطور البشر، وصنع حوادث التاريخ، وإن كانت شيئا لا يدركه الحس، ولا يصل إليه تصور الأذهان.

فهل يمكن – إرضاء لدعاة المادية الجدلية – أن يكون هؤلاء المهاجرون قد تركوا أوطانهم، ودورهم، وأموالهم، وأهليهم، إلى بلد غريب – بلا شيء؟ وهل يمكن أن يكون هؤلاء الأنصار أحبوا هؤلاء المهاجرين وآثروهم على أنفسهم، بلا شيء..!.

.. أي بدون سبب ما؟ .. فكيف يتأثر الإنسان بلاشيء.. وكيف يصنع اللاشيء تاريخًا وتطورًا في حياة البشر؟.. وما هذا «اللاشيء» الذي يدخل حياة المرء فيغير آراءه، ويبدل أفكاره ووجدانه، وينتزعه انتزاعا من جوانبه الحسية والاقتصادية ويدفعه إلى اتجاه آخر يغير به مجرى حياته؟

إذًا، فلسنا بإزاء وهم غير موجود؛ بل بإزاء عوامل عتيدة، ذات آثار واضحة مقررة في التاريخ... ولولا هذه العوامل ما جاءت تلك الآثار والأحداث على مثالها الفريد الذي تميزت به بين عبر الماضي وكائناته... ولا مفر من التسليم بهذه العوامل الروحية، فهي عوامل لها أصالتها في ضمير الوجود، كما للعوامل الحسية أصالتها في ظاهر المادة.

وحين يهتدي المرء إلى حقيقة إنسانيته، ولب وجوده، تنبثق تلك العوامل في ضميره، وتنشأ له أهداف غير أهدافه السابقة، ويتخلص من تحكم العوامل المادية في مصيره، فإذا هو يأخذ ويدع، ويقول ويفعل، وينظر إلى الحياة على مثال غير الذي كان له بالأمس، وبهذا المثال الجديد يجب أن يفسر تاريخه، وما عرض له من تطور، وما تقلب فيه من أحوال.. ولن يستقيم في الذهن تفسير الهجرة، وتأويل أحداثها إلا على ضوء هذه النظرة الصافية والمثل الجديدة.. وإذ تقرر ذلك فلا حيلة للعقل بإزائه إلا أن يرى بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم، وجهلا بأسرار الحياة، وأقدار الإنسان.. والحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) وج: واد بالطائف لا يبعد كثيرا عن مكة.

(٢، ٣) الإذخر والجليل. نوعان من النبات.

(٤) مجنة. موضع بأسفل مكة على أميال.

(٥، ٦) شامة وطفيل. جبلان بمكة ...

(٧) واقع الحوادث والظروف التي أحاطت بالهجرة تهدم فكرة العامل الاقتصادي التي يقول بها الماديون رأسا على عقب. فقد ضحى الرسول ﷺ والمهاجرون معه بكل النواحي المادية والمؤثرات الاقتصادية في سبيل الفكرة الروحية (الوعي).

* * *

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبـند

(الحلقة ١٠٣)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

٦٣- الشيخ ثناء الله الأمرتسري:

ولد الشيخ الأمرتسري في ١٢٨٢هـ، ورغم أنه ترعـرع في أمرتـسر (بنجـاب)، غـير أنـه كـشميري الأصل، أسلم آباؤه قديمًا. تلقى العلم مدة يسيرة على الشيخ أحمد الله الأمرتسري، وقرأ كتب الحديث على الشيخ عبد المنان الوزيرآبادي، ثم وصل إلى ديوبند عام ١٣٠٨هـ، وتلقى بها الحكمة والأصول والفقه. كما قرأ بعض الكتب على الشيخ أحمد حسن الكانفوري. ولم تتزعزع علاقته بكبار علماء ديوبند. واشتغل بعد التخرج في العلوم بالتصنيف والتأليف في «أمرتسر». وكان على مذهب أهل الحديث، وأنشأ مطبعة سماها «مطبعة أهل الحديث». كما أصدر جريدة أسبوعية سماها «أهل الحديث» عام ١٣٢١هـ، و استمرت الجريدة أربعًا وأربعين سنة في الصدور.

له مؤلفات قيمة في الرد على الميرزا غلام أحمد القادياني، من أهم مؤلفاته:

(١) تفسير القرآن بكلام الرحمن: وهو تفسير القرآن بالقرآن.

(٢) التفسير الثنائي باللغة الأردية.

(٣) تقابل ثلاثة: باللغة الأردية، قارن فيه بين القرآن والفيدا والإنجيل.

كان قوي الحفظ سريع الجواب، وفاق خصمه في المناظرات دائمًا، وكان له قدم راسخة في الانتصار على الخصم. ويلقب بـ«أسد بنجاب». وكان له ولع عظيم بالتأليف والتصنيف. ويُعنى بصحته ونظافة ثيابه كثيرًا، شديد التقيد بالمواعيد، وعلى ذروة الأخلاق الكريمة، وغزير المعلومات والمعارف.

له مساهمة مستمرة في حركة تحرير الهند. وجاء ذكره في قائمة الجنود الربانية في رتبة اللواء. وله مشاركة فاعلة في تأسيس جمعية علماء الهند. وظل عضدًا للجمعية في الحركة التي شنتها جمعية علماء الهند لتحرير البلاد، وظل على ولع شديد بكبار علماء ديوبند رغم اختلافه في المذهب.

تحدى الشيخ الأمرتسري الميرزا غلام أحمد

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

القاديانيَّ عام ١٣٢٦هـ بأن الكاذب منهم أعجل موتًا.

فقبل الميرزا هذا التحدي، فابتلي الميرزا بالهيضة ومات عام ١٩٠٨م، وعاش الشيخ الأمرتسري في أعقابه أربعين سنة.

وتحول من «أمرتسر» إلى «كوجرانواله» في باكستان في أعقاب تقسيم الهند، وتوفي في ٤/جمادى الأولى عام ١٣٦٧هـ في «سركودها» عن عمر يبلغ ٨٠ عامًا.

٦٤- الشيخ سيف الرحمن الكابلي رحمه الله:

انحدر آباؤه من «قندهار» واستوطنوا ضواحي مدينة «بيشاور»، وتلقى بها مبادئ العلم. وأكمل علوم الرياضية على الشيخ لطف الله العلي كرهي، وأتمَّ الحديث على الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، و اشتغل بالتدريس والتعليم مدة طويلة في مدينة «تونك». ثم ولي رئاسة التدريس في المدرسة العالية/ فتحفوري في دهلي. وانضم إلى شيخ الهند، وكان عضوًا ناشطًا في حركته. وكان من العلماء ذوي الهمم العالية، والذكاء المفرط والاجتهاد. له تلامذة كثيرون في الهند. وأمره شيخ الهند بالهجرة إلى المناطق الحرة في «ياغستان»، فهيأ أهلها بخطابته ومواعظه للمشاركة في تحرير الهند. وكان خطيبًا مصقعًا، أثار بخطابته ومواعظه حماسًا غير عاديّ في قلوب أهل «ياغستان». وكان على رتبة اللواء في قائمة أسماء الجنود الربانية. و رفع الحاج ترك زئي[1] راية الجهاد ضد الإنجليز في أوائل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، شارك فيه الشيخ سيف الرحمن، ولعب دورًا رياديًّا. وفشلت هذه الحرب فهاجر إلى أفغانستان. ولك أن تقدر نفوره من الحكومة البريطانية من أن هتلر هاجم فرنسا، ونشبت حرب داخلية في أوربا، فما إن بلغه الخبر حتى خرَّ ساجدًا قائلا: اللّٰهم ، لك الشكر على أن نشبت الحرب الداخلية بين الذئاب أنفسها، مما يبعث الأمل في نجاة المظلومين، ولا يهمني موتي».

ولي مناصب عالية في حكومة أفغانستان على عهد الأمير أمان الله خان. وعاد إلى بيشاور بعد أن ولدت باكستان، وتوفي في بلده في ٧/جمادى الأولى عام ١٣٦٩هـ.

٦٥- الحكيم محمد إسحاق الكتهوري:

من عائلة السادات في قصبة «كتهور» من مديرية «ميروت»، ولد عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، وتلقى مبادئ العلم في «ميروت» على عمه الشيخ كفايت علي، ثم قرأ في المدرسة العالية/ فتحفوري، ثم تتلمذ على الشيخ أحمد حسن الأمروهوي في قصبة «أمروهه»، وفي نهاية المطاف التحق بدارالعلوم/ ديوبند، وتخرج منها عام ١٣٠٨هـ. وكان من أوائل التلاميذ لشيخ الهند إبان رئاسته للتدريس. وتلقى الطب على الحكيم عبد المجيد خان الدهلوي، وعلى الحكيم عبد العزيز خان اللكنوي.

وأدار عيادة في «كتهور» أولا مدة يسيرة، ثم انتقل إلى مدينة «ميروت»، كما واصل تعليم الطب بجانب إدارة العيادة. وقرأ عليه كثيرون الطب، وله

كتاب ضخم في موضوع النبض باللغة الفارسية، ولم يطبع.

وأنشأ في بلده «كتهور» مصلى العيد والمسجد الجامع. كما أنشأ مسجدًا رائعًا في مدينة «ميروت». وساهم مساهمة فاعلة في حركة تزويج الأيامى من النساء في ضواحي مدينة «ميروت»، وشارك في الأعمال الدينية والسياسية أيضًا.

وتقرر جلب الحبوب لصالح دارالعلوم/ ديوبند عام ١٣٢٧هـ، فكان الحكيم محمد أول من استجاب له، وعني عناية بالغة بتوفير الحبوب لصالح دارالعلوم/ديوبند من «كتهور» وضواحيها، فتوفرت كمية كبيرة منها بعناية منه. جاء في التقارير الدورية:

«وأول من لبى هذه الدعوة، واستجاب لها هم أهل «كتهور» وضواحيها، وذلك بتشجيع وتحفيز من الحكيم محمد إسحاق. واستمر شحن الحبوب من مديرية «ميروت» أعواما طوالا بعناية من الحكيم الكتهوري»(٢).

وجاء في التقارير الدورية عن الحكيم محمد إسحاق: «يحمل الصفات الحميدة، له منزلة خاصة في التفكير في شؤون درالعلوم/ديوبند والتدبير والنصح لها بإخلاص»(٣).

كان من الأولياء ذوي النسبة والتقيد بالمواعيد. ونال الخلافة من الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي. و كان مرفوع الكلفة مع الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله. وكانا يلتقيان فيجذب الشيخ المدني صرته من جيبه، فيطول الصراع بينهما، حتى يفوز الشيخ المدني بمرامه، ويستخرج ما في الصرة من النقود، ويأمر من يشتري به الحلوى. وكان الحكيم الكتهوري على غاية من دماثة الخلق، وطلاقة الوجه، والتواضع، وهضم الذات، وعلى صلة قوية بجمعية علماء الهند.

ظل عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند اعتبارًا من عام ١٣٤٤هـ إلى ١٣٧٣هـ. توفي عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م، ودفن في بلده.

٦٦- السيد محمد أنورشاه الكشميري:

من سكان «كشمير»، ولد في ٢٧/شوال عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م في عائلة من عوائل السادات العلمية الموقرة. وامتازت هذه العائلة في طول كشمير بعلمها وفضلها. بدأ قراءة القرآن الكريم وهو ابن أربع سنوات على والده الشيخ السيد معظم شاه رحمه الله. وكان يتمتع بالذكاء المفرط، والذاكرة التي لامثيل لها منذ أول عمره. فأنهى خلال مدة يسيرة وهي سنة ونصفها كتاب الله تعالى وبعض كتب الفارسية الابتدائية، واشتغل في تحصيل العلوم المتداولة. ولم يكد يبلغ من عمره أربعة عشر عامًا حتى هجر بلده مدفوعًا بالعاطفة القوية المفرطة نحو العلم، وقضى نحو ثلاث سنوات في مدارس «هزاره» وتمكن من العلوم والفنون المختلفة، غير أن صيت ديوبند حمله على تلقي المزيد من العلم فيها، وجعله على أشد من الجمر. فقدم ديوبند عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، حين كان يتولى شيخ الهند منصب رئاسة التدريس. فلم يلبث أن تفطن التلميذ

لـشيخه، والـشيخ لتلميـذه في أول لقـاء جمـع بيـنهما. وبدأ التلميذ عليه كتب التفسير والحديث، ولم يمض إلا سنوات معـدودات حتى نـال منزلـة عاليـة ممتازة بالإضافة إلى الصيت والذكر الحسن في دارالعلوم/ ديوبنـد، وتخـرج منهـا عـام ١٣١٤هـ، وتوجـه إلى الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، وأسند عنه الحديث بجانب استفادة ونيل الخلافة منه.

وتــولى التــدريس مــدة يــسيرة في المدرســة الأمينية/دهلي بعد التخرج من دارالعلوم/ديوبند، وعـاد إلى كـشمير عـام ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م، وأنشأ بها في منطقتـه مدرسـة سـماها «فـيض عـام»، وحـج عـام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م بيـت الله تعـالى، ومكـث مـدة يـسيرة في الحجـاز، واسـتفاد مـن مكتباتهـا، وعـاد إلى ديوبند عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، فأمسكه شيخ الهند بهـا، وقـام بتـدريس كتـب الحـديث سـنوات عـدة مـن غـير راتـب يتقاضـاه. وكـان نـزل ضـيفًا عـلى الـشيخ محمـد أحمـد مـا لم يـصدر لـه راتـب مـن دارالعلـوم/ ديوبنـد. وقـصد شـيخ الهنـد الحجـاز في أواخـر عـام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م، فاسـتخلف الـشيخَ الكـشميري في رئاسـة التـدريس بـدارالعلوم/ديوبنـد، واسـتمر عليه اثني عشر عامًا. واستقال من منصب الرئاسة في دارالعلــوم/ديوبنــد في أوائــل عــام ١٣٤٦هـ /١٩٢٧م لاختلافـات نـشأت يومـذاك، وتوجـه إلى مدرسة «دابيل» في جنوب الهند، واشتغل في تدريس الحديث بها حتى عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ورزقـه الله تعـالى مـن الـذاكرة القويـة الفاقـدة المثال أنه كان يتذكر نصوص الكتب التي يقرأها مرة واحدة مع صفحاتها فضلا عن محتواها ومضامينها. وكـان يـشير إليهـا بكـل بـساطة خـلال إملاءاتـه وتقـاريره. وبلـغ مـن حـب المطالعـة والدراسـة أن خزائن العلوم والفنون لم تستطع إبراد غلته العلمية، وكان مكتبة متنقلة ومتكلمة نظرا إلى سعة دراسته، وقـوة ذاكرتـه. وكـان يجـري عـلى لـسانه معظـم كتـب الحديث عـلاوة عـلى الكتـب الـصحاح الـستة. وكـان يـرد عـلى الـسائل فـيما يخـص المـسائل التـي تتطلـب التحقيق والدراسة التي تستنفد الأعمار والآجال يرد عليها كلمح بالبصر ردًّا جامعًا شاملًا يقضي على كل ما يخالج السائل من الشبه والاعتراضات، دون أن يحتـاج إلى مراجعـة كتـاب مـن الكتـب. وأضـف إلى ذلـك أنـه كـان يـشير إلى أسـماء الكتـب وصـفحاتها وسطورها. وكان يتحدث في كل علم وفن بارتجال يبدو معه أن هذه العلوم والفنون مستحضرة لديه، وأنه لم يمض وقت طويل على مطالعتها ودراستها.

قال الشيخ السيد سليمان الندوي في عزائه على وفاة الشيخ الكشميري ما نشر في مجلة «معارف»:

«مثله كمثل بحر هادئ ظاهره، ومعمور باطنه باللآلي والجواهر القيمة، وكـان فاقـد المثـال في سـعة النظـر، وقـوة الـذاكرة، وكثـرة المحفوظـات في هـذا العـصر. وكـان مـن حفـاظ علـم الحـديث والعـارفين بخبايـاه، وعـلى قمـة علـوم الأدب، والبراعـة في المعقـولات، ومـن القـادرين عـلى الـشعر، وذوي الكـمال في الزهـد والتقـوى. لقـد رفـع شـهيد العلـم

والمعرفة هذا نداء: قال الله وقال الرسول حتى آخر لحظة من حياته».

زار العالم المصري الشهير الشيخ السيد رشيد رضا ديوبند، ولقي الشاه الكشميري فاندفع قائلا: «ما رأيت مثل هذا الأستاذ الجليل». واعترف بفضله وعلمه في مجلته «المنار» بعد ما عاد إلى مصر.

وعلى كل، كان من سعادة دارالعلوم/ديوبند أن فوض إليه رئاسة التدريس بعد شيخ الهند محمود حسن الديوبندي.

وما شغِفَ به العلامة إقبال من التوجيهات الإسلامية في آخرأيام حياته يرجع لحد كبير إلى الشاه الكشميري وفيوضه العلمية. وقد استفاد العلامة إقبال كثيرًا من العلامة الكشميري فيما يخص العلوم الإسلامية. وكان الأول يحترم الأخير كثيرًا، ويخضع لرأيه اعتقادًا وحبًّا.

وفارق الشيخ الكشميري ديوبند، فحاول العلامة إقبال كل المحاولة أن يقنع الشيخ الكشميري بالنزول بصورة مستقلة في «لاهور»، وذلك ليقوم بصياغة الفقه الإسلامي صياغة جديدة بمساعدة منه، إلا أن الشاه الكشميري استجاب لطلب أهل «دابيل». واستفاد العلامة إقبال كثيرًا من الشاه الكشميري فيما يخص صياغة المحاضرات الإنجليزية. وساعد العلامة الكشميري كثيرًا في المقالات القيمة التي أعدها العلامة إقبال في الرد على القاديانية.

وتغلب عليه المذاق العلمي تغلبًا جعله يفزع من الزواج والحياة العائلية مدة مديدة، وفي نهاية المطاف رضخ لإصرار العلماء الكبار الكبير وتزوج وهو ابن ٤٣ سنة، وشرع في استلام الرواتب بعد ذلك. وأمضى سنوات في «دابيل»، ثم اضطرته الأمراض إلى العودة إلى «ديوبند»، التي اتخذها وطن إقامة له. وتوفي بها عن عمر يبلغ ٦٠عامًا في ٣/صفر المظفر ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م. وضريحه بالقرب من مصلى العيد.

* * *

الهوامش:

(١) كان الحاج ترنك زي من أبرز الشخصيات الهامة في تاريخ حرب تحرير الهند من الاستعمار في منطقة «سرحد». وكان من سكان قرية «ترنك زي» من مديرية «بيشاور». أصل اسمه «فضل واحد»، واشتهر بنسبته إلى بلده (الحاج ترنك زي) أكثر من اسمه. وهو من خلفاء الشيخ الشاه نجم الدين المعروف بـ«السيد صوات». وكان ملئ حبا وعاطفة نحو التحرير والاستقلال. وله مريدون بالآلاف في منطقة بيشاور وياغستان. وكان محببا إلى الشعب بجانب صيته الذائع. وهاجر الحاج ترنك زي بإشارة من شيخ الهند من وطنه بيشاور إلى ياغستان عام ١٩١٤م. واتفق له الحرب ضد الجنود البريطانية غير مرة. ومنيت القوات الإنجليزية بالخسائر الشديدة في مواجهتها له غير مرة. واشتهر أن المجاهدين معه لم يخطئ رصاصة منهم هدفه ضد الإنجليز.

وكان شيخ الهند يستعد للرحيل إلى الحاج ترنك زي هذا في ياغستان مباشرة إبان نزوله في الحجاز إذ اعتقله الشريف حسين الذي حالف الإنجليز ضد الأتراك، وسلمه إلى السلطات البريطانية.

وحارب الحاج ترنك زي الإنجليز ما دام على قيد الحياة، حتى وافاه الأجل. أدخله الله تعالى في رحمته، ما أعجب هذا الرجل المؤمن الذي حارب الإنجليز حتى آخر نفس من حياته.

(٢) تقارير حول توفير الحبوب لعام ١٣٣٢هـ، ص ٢.

(٣) تقارير دورية لعام ١٣٧٤هـ، ص ١.

المجتمع الإسلامي بين الواقع والمثال

بقلم: الأستاذ إسحق موسى الحسيني

يوجه الباحثون الغربيون إلى المسلمين نقدًا لاذعًا، علينا أن نتأمل فيه ونبحثه صراحة، سواء أعجبنا أم لم يعجبنا. وخلاصة ما يقولون أن الإسلام شيء والمسلمين شيء آخر. وبعبارة أخرى: أن الإسلام كما هو في القرآن الكريم، وفي كتب المسلمين يتضمن مبادئ سامية، كالصدق والأمانة والوفاء والعدل والإنصاف والرحمة والرأفة والتعاون والتعاضد، وما إلى ذلك من مبادئ أكدها الإسلام، وحثّ عليها، على نحو لا نكاد نجد له نظيرًا في الديانات الأخرى، الأمر الذي ينبغي أن ينتج مجتمعًا مثاليًّا فريدًا يقرب من «المدينة الفاضلة» أو «الأيتوبيا» التي تحدث عنها الفلاسفة. هذا من حيث المثال.

أما من حيث الواقع فإن المجتمع الإسلامي – كما نراه – مجتمع نخر، قرضت قلبه مساوىء اجتماعية، يضرب بقبحها المثل في المجتمعات الراقية. وهو مجتمع متفكك، متعدد الشخصية، يخشى أن يظهر على حاله فيتلون حسب الظروف، في ظاهره صف واحد – كما يبدو في الصلاة – وفي باطنه صفوف متناحرة، يثب بعضها على بعض.

هذا النقد نقرأه حينًا في الكتب، ونسمعه حينًا آخر، فنرتاع ونلتاع. ولكنه على أي حال ذو نتائج غاية في الإضرار بديننا وسمعتنا، وقضايانا القومية وعلاقاتنا الدولية، لا سيما في هذا الظرف الذي نواجه فيه عدوًّا ذا قدرة فائقة على بث السموم والدعايات، وتأليب الدنيا علينا.

في كل مجتمع مساوىء

ويحسن بنا قبل أن نبين الأسباب ونصف العلاج أن نقف عند النقد نفسه، نزنه ونضبطه ونقيده.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أتخلو المجتمعات غير الإسلامية من مساوىء؟ أتحافظ هذه المجتمعات على مبادئها الدينية؟ وما أظن أن الجواب يحتاج إلى إسهاب. ففي كل مجتمع مساوئ

خاصة به، ناجمة عن الظروف المادية والمعنوية التي تحيط به. وكما أن مرض الإنفلونزا يفتك في البلاد الباردة الكثيرة الرطوبة، فإن المساوىء الاجتماعية تتأثر بالأجواء على مختلف أنواعها. ففي البلاد الغربية المتحضرة – مثلا – تسامح في العلاقة الجنسية لا نجد له نظيرا في المجتمع الإسلامي. وفي العالم غير الإسلامي حكومات تشهر الحروب وتستبيح لنفسها التحكم في رقاب أمم مسالمة وإذلالها، ومنع تقدمها، لتمتص دماء أهلها. والحكم الإسلامي لم يعرف هذا النوع من التحكم، إذ كانت المصلحة العامة مقدمة على غيرها، على نحو ما نقرأ في تاريخ المسلمين في الأندلس، وشمالي إفريقيا، أو على الأقل كان الخير عاما والبلاء عاما.

ولو كانت مبادئهم الدينية هناك سائدة لما وثبت الدول الغربية بعضها على بعضها مناقضة تعاليم السيد المسيح – عليه السلام – التي تقطر رحمة ونبلا وتسامحًا.

وإذن ففي المجتمعات غير الإسلامية مساوىء من نوع آخر لا نظير له في المجتمع الإسلامي.

الإسلام بريء

والحقيقة أن الإسلام لا علاقة له البتة بواقع المسلمين السيئ.. والدليل على ذلك أن المسلمين كانوا – يوم فهموا دينهم والتزموا بتعاليمه – من أرقى أمم العالم. ولو كان دينهم هو علة واقعهم الحالي لوجب أن يكونوا في مؤخرة العالم طرا، في كل مرحلة من مراحل تاريخهم، ولا سيما في المرحلة التي كانوا فيها أشد تعلقًا بمبادئ دينهم، وأصدق فهما لها.

ودليل آخر: أن المجتمع الإسلامي ليس متساويًا في هذا البلاء الواقع فيه. والذي يتنقل في العالم الإسلامي من إندونيسيا شرقًا، إلى المغرب العربي غربًا يجد فروقا بينة أوضح من أن يشار إليها. ولو كان المصدر واحدا لجاءت النتيجة واحدة أيضا؛ بل إن المجتمع الواحد في القطر الواحد متباين أشد تباين، من مدني وريفي وبدوي. وبعض المجتمعات الإسلامية يضرب بها المثل في صدق القول والأمانة، حتى لا يكتب بعضهم على بعضهم صكوكا، ولا مواثيق، بقدر ما يضرب بغيرها المثل في عكس ذلك.

وأمر ثالث: أن بعض الباحثين المغرضين يلفق الأقوال ويبهرجها. مثال ذلك ما رواه مؤلف عن (العقلية الإسلامية) من أن المسلمين يفصلون بين الدين والمعاملات، فللمسلم أن يغش ويكذب

ويحتال ما شاء، وما عليه بعد ذلك إلا أن يصلي ويصوم، فيغفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر. ولو صح هذا القول لكان المسلمون جميعا لصوصا محتالين. والأمر خلاف ذلك، إذ حرم الإسلام السرقة، وبالغ في عقابها، كي يقطع دابرها، كما حرم الخيانة والاحتيال والكذب وما أشبه ذلك. وقد اشتمل على العبادات والمعاملات معا، حتى جعل لها أبوابًا تفرد بها من دون الديانات الأخرى. والباحثون الغربيون أنفسهم يتذمرون ويتبرمون بما تشتمل عليه الشريعة من حدود وعقوبات وقواعد وأحكام.

ولكن مساوئنا شوهته:

وهل ننتهي إلى أن المجتمع الإسلامي محافظ على مبادئ الدين مراعٍ أحكامه خالٍ من المساوئ؟

نستغفر الله من قول ذلك. فهذه المساوئ قد طمت وعمت، حتى لا يستطيع أن ينكرها إنسان. إنها مساوئ تسيء إلى الدين بقدر إساءتها إلى المسلمين. إنها مساوئ تنغص على المرء حياته، وتزري بكرامته، وتهيب به أحيانا إلى أن يدعو الله أن يرحمه فيريحه من أمته أو أن يريحها منه!! إنها مساوئ تثقل الصدر والقلب والعقل، وتحمل على الاعتقاد بأن الكفاح الاجتماعي لا يقل شرفا عن القتال الحربي، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أضحى فريضة، لا تقل شأنا عن الفرائض الأخرى. إنها مساوئ شوهت هذا الوجه السمح الكريم الذي تجلى في بعض صفحات التاريخ الإسلامي فازدهرت به الدنيا ردحا من الزمن، ثم غاب وراء سحب دكناء..

سبب هذا الواقع

وما الذي حدث حتى انقلب الحال إلى اسوإ منقلب؟

تبدو للمتأمل ثلاثة أسباب نجملها فيما يلي.

الأول: فساد الإدارة بفساد الحكام الذين جعلوا من أنفسهم طبقة تعبد من دون الله، واتخذوا من حولهم حاشية تكون طبقة أخرى تسكت عن الفساد بفساد مثله. وهكذا ضاع الشعب المؤمن بربه، وفقد ثقته بنفسه وبمبادئه، وانحرف وظل ينحرف حتى ضاعت القيم الاجتماعية، وأصبح القابض على مبدئه كالقابض على جمرة.

والثاني: الموقف السلبي الذي وقفه المسلم من مجتمعه، نتيجة للمآسي التي عاناها والتجارب المريرة التي قاساها، فانزوى بنفسه لا يبالي بمن حوله، أعاشوا أم هلكوا. وما يفيده لو بالى وهو لا يملك ضرًّا ولا نفعًا. لقد كان المؤمن يملك إزالة

الجبال يوم كان يؤمن فردًا كان أم حاكمًا بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضرب من ضروب الإيمان، من فقده ضعف دينه. لقد كان المجتمع يومذاك مسؤولا عن الفرد وكان الفرد مسؤولا عن المجتمع، كرب الأسرة، يعنيها ما يعنيه، ويعنيه ما يعنيها. كان الفرد ملتزمًا التزاما كاملا بدفع الأذى حيثما كان، ومن أين جاء، وبجلب النفع ولو من الصين وأقاصي الدنيا. ثم همدت الهمم وفترت، وذهب كل في سبيله متمثلا بالقول المأثور «انج سعد فقد هلك سعيد». ولم يؤسس المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة؛ بل أسس على «الإيجابية» التامة وتكافؤ الفرص، والاندفاع في معترك الحياة بكامل العدة، وتوزيع خيرات الله على عباد الله.

والثالث: فهم الدين فهمًا هزيلا سطحيًّا. جعل بعض الناس يفهمون – خطأ – أن الدين عبادة، وأن العبادة هي – وحدها – القربى إلى الله. أما ما سوى ذلك من إيمان عميق بالله، ونية خالصة في معرفته، وحب الله بحب عباده وحسن معاملتهم فقد غاب عن أذهانهم. مع أن الإسلام قد أوثق الربط بين العبادات والمعاملات؛ بل امتاز بأحكام الربط بينهما حتى جعل حسن المعاملة عبادة يثاب المرء عليها، فجاء قوم فصلوا بينهما، وقطعوا الدين عن الدنيا، ففقدوا الاثنين معا.

لقد توهموا أن العبادة غاية، مع أن الله تعالى منزه عن الحاجة إلى عبادة. ولم يفطنوا إلى أن العبادة وسيلة إلى توثيق الصلة بالله، والالتصاق به، وتنفيذ أحكامه، وتكوين ضمير إلهي، ومجتع إنساني كامل.

وبعد فما العلاج؟

إن المجتمع الإنساني – كالفرد – مفطور على المرونة والتكيف بالظروف والأحوال والمجتمع إما أن يسير إلى الإمام وإما إلى الوراء. أما المجتمع الثابت فلا وجود له وإذا قيض الله للمجتمع قادة أولي حكمة وعزم وقوة يصدقونه النصح والقيادة، ويؤثرونه على أنفسهم بالحب والسعي، يجددون أنظمته، ويجددون أدواءه، ويحسنون علاجه، ويؤسسونه على العدل والإنصاف وتكافؤ الفرص، ويشرحون الدين شرحًا سليمًا، فإن المجتمع الإسلامي يسترد مكانته، ويبرأ من أدوائه، ويعود إلى حيث أراده الله أن يكون في طليعة الأمم قيادة وريادة وبناء وإبداعا. وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

يومان في حياة الرسول ﷺ

بقلم: الدكتور محمد الدسوقي

١- في حيـاة الرسـل والأنبيـاء والمـصلحين والمجـددين أيـام مـشهورة وأحـداث بـارزة تعكـس مبلغ ما بذل هؤلاء من الجهد والكفاح من أجل أن تسود كلمة الحق والخير، كما تعكس أيضا سطوة الباطل وحرصه الشديد على التصدي دائمًا لدعوات الهداية والإصلاح.

وكان خاتم الهداة والمرسلين محمد ﷺ المثل الكامل في كل شيء، وكانت حياته المباركة كلها صفحة مشرقة بجلائل الأعمال، ومن ثم تعد هذه الحياة -بلا جدال- الأسوة الحسنة للدعاة في سبيل الله، والصورة المثلى للبذل والفداء، والآية الصادقة على أن الإيمان الذي لا تشوبه شائبة ما لا تنال منه أعاصير البغي والكفر مهما قست وطغت، ولا تزيده الشدائد والمصائب إلا مضاءً في العزيمة وثباتًا في اليقين وإصرارًا على الجهد والتضحية.

٢- ولا مجال في هذه الكلمة للحديث عن تلك الحياة الفريدة في تاريخ البشرية، ومهما يكتب الكاتبون فيها فإنها ستظل أبدًا في حاجة إلى مزيد من الحديث عنها، والكشف عن مثلها وقيمها الرائعة، فهي غنية بالمثل والقيم التي يبحث عنها الإنسان في ظل الحضارة المادية الحديثة، عله ينجو مما يقاسيه من القلق والاضطراب، ولكني - تحية لذكرى المولد الشريف - أقصر الحديث في إيجاز على يومين من حياة رسولنا الكريم هما:

أ- يوم الطائف.

ب- يوم الفتح.

لأنهما وإن تفاوتا من حيث ما وقع فيهما للرسول عليه الصلاة والسلام تجمعهما صفة الرحمة والرأفة في حياة الرسول العظيم.

٣- والحديث عن يوم الطائف يقتضي الإشارة إلى طرف من الأحداث قبله، فقد كانت الجاهلية في مكة منذ صدع محمد بأمر ربه تحاول ما استطاعت أن تحول بين محمد وما يدعو إليه، وكانت تسوم المؤمنين برسالته كل ألوان الأذى والعنت، بيد أنها ما كانت تجرؤ على إيذاء الرسول كما كانت تؤذي أصحابه وأتباعه، لمكانة عمه أبي طالب في قريش، ولبطولة هذا العم في الدفاع عن ابن أخيه[1]، وليس أدل على هذا من موقفه يوم قدم وفد قريش إليه قائلا له! يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولا جميلا، وردهم ردًّا رفيقا فانصرفوا عنه، وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعو إليه، ولكن محمدا مضى في طريقه يبلغ

رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك أمامه وأمام الذين آمنوا به.

وذهب وفد قريش مرة ثانية إلى أبي طالب واتسمت لهجتهم في الحديث معه هذه المرة بالحدة والتهديد بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه من سب الآلهة والآباء، وتسفيه الأحلام وفتنة الأرقاء والضعفاء، واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه، ولم يجد خلاصًا مما هو فيه من حيرة سوى أن يبعث إلى رسول الله ﷺ وأعلمه ما قالت قريش، ثم أردف هذا بقوله: ابق على نفسك وعلي ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، وما كاد أبو طالب يلفظ بهذه العبارة في هدوء يشوبه القلق والأسى حتى استولى على الرسول إحساس بأن عمه قد خذله وضعف عن نصرته، غير أن هذا الإحساس لم ينل من الإيمان الذي لا يغلب ولا يَهِن، فقال الرسول لعمه تلك القولة التي أصبحت شعارا للفداء وثبات اليقين: يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه.. ما تركته[٢].

ويروى أن الرسول بكى بعد هذا وقام منصرفًا، ولكن عمه ناداه وقال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم

حتى أوسد في التراب دفينا[٣].

٤- فلما توفي أبو طالب في السنة العاشرة من المبعث، وتوفيت بعده بقليل السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حزن الرسول لموتهما حزنًا شديدًا حتى سمى العام الذي ماتا فيه عام «الحزن».

وبموت أبي طالب وخديجة تتابعت الشدائد والمصائب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]، فخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت سندًا لزوجها بما توليه من حبها وبرها ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها[٥] لقد كانت له وزير صدق على الابتلاء يسكن[٦] إليها فتهون عليه كل شدة وتزيل من نفسه كل خشية، وأما أبو طالب فقد كان لابن أخيه حمى وملاذًا من خصومه وأعدائه، ومن ثم تجرأت قريش على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موت عمه وزوجه، وأسرفت في إذائه والإساءة إليه، فقد روي عن ابن مسعود قال: بينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد «عليه الصلاة والسلام» إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه.

فلما سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعه بين كتفيه فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهره، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة.

فجاءت – وهي جويرية – فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم[٧]. كما يروى أن بعض سفهاء قريش نثر على رأس الرسول ترابا، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى بناته تغسله وتبكي، ورسول الله ﷺ يقول:

لا تبكي يابنية فإن الله مانع أباك.. ثم كان يقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبوطالب(٨).

٥- وضاق الرسول بمكة بعد أن ضاقت به وتفكر له الناس حتى أقربهم إليه وأدناهم منه، فخرج إلى ثقيف بالطائف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار(٩)، وبين مكة والطائف نحو خمسين ميلا والطريق وعر، يخترق سلسلة من الجبال، وقد قطع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المسافة – في ذهابه ورجوعه – على قدمه، ولم يكن معه غير مولاه زيد بن حارثة، وحين انتهى الرسول إلى الطائف عمد إلى جماعة من أشراف ثقيف، ودعاهم إلى الإسلام، فسخروا منه وهزئوا به، ومكث الرسول يتردد على منازل القوم عشرة أيام، فما رأى منهم جميعًا إلا ردًّا منكرًا، فلما يئس عليه السلام من خيرهم طلب منهم أن يكتموا عليه أمره معهم حتى لا تزداد عداوة أهل مكة له، وشماتتهم به، ولكن القوم كانوا أخسّ مما ينتظر، فقد قالوا له: اخرج من بلدنا، ولم يكتفوا بذلك، فقد حرشوا عليه الصبيان وأغروا به السفهاء والعبيد يسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس في صورة كريهة تبعث على الأسى والألم وزيد بن حارثة يحاول – عبثا – الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه(١٠).

وكان الرسول يحاول أن ينأى عن هؤلاء السفهاء الذين تملكتهم حمى السخرية والإيذاء، ولكنهم ظلوا يطاردونه ويركضون وراءه حتى وجد نفسه أخيرًا يدخل بستانًا، فانصرفوا عنه، وقد أدموه وأرهقوه كل إرهاق.

٦- وأوى الرسول إلى ظل شجرة في بستان ابني ربيعة بعد هذه المطاردة المؤلمة، وقد عز عليه ما كان من ثقيف التي سعى إليها يدعوها للتي هي أقوم، ويلتمس لديها الجوار والنصرة، فلم يجد منها إلا القسوة والجفوة وسوء الخلق. وكان هذا الذي حدث له في الطائف ذكره بما حدث له في مكة فاتجه إلى السماء قائلا: اللّٰهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك(١١).

٧- وكان يوم الطائف أو ثقيف لما أومأت إليه أشد الأيام على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظل – عليه السلام- يذكر هذا اليوم وما كان فيه من حماقة أهل الطائف، فقد روي عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل أتى عليك يوم أشد من أحد(١٢)؟ قال: لقيت من قومي ما كان أشد، قال: وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مغموم فلم أستفق إلا أنا وبقرن الثعالب(١٣) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني

فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي وقال: يا محمد: أنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بما شئت فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين(١٤) فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا(١٥).

هذا يوم الطائف، يوم بلغت فيه الجهالة والضلالة ذروة المنكر والشر، كما تجلت فيه بعض أخلاق النبي الأمي الذي بعثه ربه رحمة للعالمين وأثنى عليه في كتابه المبين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١٦).

٨- ولم يستطع الرسول دخول مكة بعد رجوعه من الطائف حزينًا إلا في جوار المطعم بن عدي، فالجاهلية في تلك المدينة قد اهتبلت تلك الأحداث التي ألمت بالرسول فأدخلت على قلبه الحزن الشديد، وأخذت تفكر جديا في قتله وتصب العذاب صبًّا على كل من آمن به، فكان دخول مكة بعد يوم الطائف محفوفًا بالمخاطر الجسيمة، وكان الجوار ضروريا لتجنبها حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وأخذت الأحداث تترى بعد ذلك، والكفر لا يدخر وسعًا في عدوانه وطغيانه والرسول الأمين لا يألو جهدا في تبليغ ما أمره الله به، ثم كانت الهجرة إلى يثرب لا فرارا من البطش والاضطهاد؛ ولكن تحولا إلى بيئة جديدة تصلح للدعوة الخاتمة حتى يمكن أن تقام الدولة وتعد القوة، حماية للحق وتمكينا له، وردعا للباطل وقضاء عليه، فالحق بلا قوة تذود عنه فكرة ذهنية مجردة لا تستطيع أن تعيش في دنيا الناس، ولهذا خاضت القلة المؤمنة بعد الهجرة معارك عديدة ضد الكثرة المشركة، فما أجدت كثرة هؤلاء شيئا، وما حالت قلة المؤمنين بينهم وبين الظهور على أعدائهم من المشركين والمنافقين واليهود.

٩- وأما يوم الفتح فقد كان في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، كان قمة الانتصار لدعوة الحق، ففي هذا اليوم دالت دولة الشرك، وطهر البيت الحرام من الأوثان والأصنام، ودخل الناس بعده في دين الله أفواجًا.

على أن يوم مكة أو فتحها لا يمثل عدوانا على أهلها، فهم قد نقضوا ما شرطوا لرسول الله ﷺ في صلح الحديبية، إذ كان من مبادئ هذا الصلح أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنوبكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده(١٧).

ودفعت سورة الحقد الجاهلي قريشًا وحلفاءها من بني بكر إلى مهاجمة خزاعة – وهي مع المسلمين في حلف واحد – وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا وانحازت خزاعة إلى الحرم، إذ لم تكن متأهبة لحرب، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغي(١٨).

١٠- وفزعت خزاعة، لما حل بها إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تخبره بما أصابها وبما كان من تحالف قريش مع بني بكر عليها، بالإضافة إلى أن ما قامت به قريش نقض صريح للعهد، ولا سبيل إلى نصر خزاعة والرد على نقض العهد إلا بإعداد الجيوش لفتح مكة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولم يمض وقت طويل حتى كان المسلمون قد تجهزوا للسير نحو مكة، ولم تفجع محاولات قريش في إقناع الرسول بالعدول عن عزمه، ولم يترك الرسول لأهل مكة الفرصة حتى يستعدوا للقائه، حرصًا منه عليه السلام على أن يباغت القوم في غرة منهم فلا يجدوا له دفعا فيسلموا من غير أن تراق الدماء، ولذلك كانت أوامر الرسول للقواد ألا يحاربوا أو يسفكوا الدم إلا إذا أكرهوا على ذلك، ليدخل المسلمون البلد الحرام آمنين مطمئنين، وليظل لهذا البلد قدسيته وحرمته فلا يخاف فيه إنسان ولا تزهق فيه أرواح، ولذا يروى أن زعيم الأوس سعد بن عبادة حين ذكر ما فعل أهل مكة وما فرطوا في جنب الله، وأدرك أنهم لا حول لهم أمام قوة المسلمين، صاح قائلا: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول ﷺ، فأمر بنزع اللواء من سعد، ودفعه إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس(١٩).

١١- وكان جيش المسلمين نحو عشرة آلاف مجاهد، وقد دخل هذا الجيش مكة دون مقاومة أو قتال اللّٰهم إلا ما كان من الفرقة التي قادها خالد ابن الوليد، فقد اعترض لها بعض المشركين، ولكنهم لم يصمدوا أمام بأس خالد ورجاله وولوا منهزمين.

وبعد أن أخذ الرسول الكريم حظا قليلا من الراحة في قبته التي ضربت له على مقربة من قبري أبي طالب وخديجة امتطى ناقته القصواء، وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعًا، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف الرسول على بابها وتكاثر الناس في المسجد فخطبهم قائلا: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء(٢٠). وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وأهل مكة جميعًا، وهو عفو لا يصدر إلا عن قلب كبير لا يعرف غير الحب والتراحم والرأفة ويزيد من جلاله وروعته صدوره في لحظة القوة والغلبة، فالقوي الذي ينتصر من الضعيف أضعف الضعفاء، والقوي الذي يصفح عن عدوه وهو قادر عليه أرحم الرحماء وأشرف الأقوياء.

١٢- وبعد فهذه كلمة موجزة عامة عن يومي الطائف والفتح، وفيهما تجلت عظمة الرسول الإنسان الذي تحمل ما تحمل من المشقات في سبيل إنقاذ قومه من دياجير الكفر والوثنية، وما كان يؤلمه

إيـذاء قومـه لـه بقـدر مـا كـان يؤلمـه عكـوفهم عـلى أصنامهم وجاهليتهم وعدم أيمانهم بما جاءهم به من عند ربه، لأنه يعلم أن مآلهم بهذا الضلال والعناد جهنم وبئس القرار، ولـذلك كـان عليـه السلام في سـاعات العسر واليسر ولحظات الهزيمـة والنـصر الإنسان الرحيم الذي بلغ الذروة في الحب والعفو والـصفح، والـذي واجـه الأذى والاضـطهاد بالإغـضاء والـدعاء بـما هـو خير كـما حـدث في يـوم الطـائف، فلـم يـشأ أن ينـزل العقـاب المـدمر بهـؤلاء السفهاء، وإنما رجا الله تبارك وتعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده.

وفي يوم الفتح وقف أمامه في ذلة وضعف من كانوا بالأمس يأتمرون به ليقتلوه، ومن أساؤوا إليه وإلى أصحابه إساءة تجاوزت كل حد، وكان عليه السلام يستطيع أن يعاقب هؤلاء القساة الظالمين ولا جناح عليه في ذلك، فجزاء سيئة سيئة مثلها، ولكن محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رحمة مهداة تعفو عمن ظلم وتدفع دائما بالتي هي أحسن، وهذا بعض أسرار العظمة الإنسانية في حياته عليه السلام.

لقد كان محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رحيما عظيما في ضعفه وقوته، ما عرف الانتقام سبيلا إلى فؤاده، وما جازى مسيئا بإساءته، وما حرص على شيء حرصه على أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور، وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢١).

فما أجدر الدعاة والقادة والحكام والناس كافة أن يسترشدوا بسيرة هذا النبي الإنسان الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، فهي كلها دروس رائعة تنير معالم الطريق نحو حياة إنسانية كريمة تليق بالإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفة له في أرضه وصدق الله العظيم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢٢).

* * *

الهوامش:

(١) فقه السيرة للأستاذ محمد الغزالي ص١٢٩.
(٢) فقه السيرة ص ١١٤.
(٣) فقه السيرة ص ١١٥.
(٤) انظر السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص١٢٢.
(٥) حياة محمد لهيكل ص ١٨٦.
(٦) السيرة النبوية لإبن كثير.
(٧) فقه السيرة ص ١٢٩.
(٨) انظر سيرة ابن هشام م١ ص ٤١٦.
(٩) على هامش السيرة ج٢ ص ١٤٠.
(١٠) فقه السيرة ص ١٣١.
(١١) السيرة لابن هشام م١ ص ٤٢١.
(١٢) في أحد كسرت رباعية الرسول وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه، وأصيبت ركبتاه فضلا عن استشهاد عدد كثير من الصحابة ومنهم حمزة عم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (انظر إمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص١٣٥).
(١٣) موضع تلقاء مكة على مرحلتين منها.
(١٤) الأخشبان: جبلان بمكة.
(١٥) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ٩٨.
(١٦) الآية ٤ في سورة القلم.
(١٧) السيرة لابن هشام م٢ ص ٢٩٠.
(١٨) فقه السيرة ص ٤٠٣.
(١٩) المصدر السابق ص ٤١٢.
(٢٠) السيرة لابن هشام، م٢ ص ٤١٢.
(٢١) الآية ١٢٨ في سورة التوبة.
(٢٢) الآية ٢١ في سورة الأحزاب.

من عيد الهجرة إلى عيد المولد

بقلم: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

يوم الخميس ١/المحرم عام ١٣٩٤م كان يومًا ثقيلا ينوء بحمل تاريخ كبير من أمجاد هذه الأمة.

يـوم يحمـل ينبـوع وجودهـا، وسر أمجادهـا، ومبعث عزتها، وروح وحدتها!..

كـان يومـا ارتسم عـلى شمسه البـاب العظيم الذي دخلت منه هذه الأمة إلى التاريخ ثم تبوأت عرشه، وقد كانت قبل ذلك ملقاة على هامشه، شاردة وراء سوره!.. ذلك لأنه كان يوم الهجرة!..

فكيف استقبله المسلمون عندنا؟.. وكيف احتفلوا به، وكيف أكرموا مقدمه؟

لاشيء.. لقد أقبل اليوم ومر كما يمر أي آخر دون أن يأبه به أحد. ولقد طلعت شمسه، ثم ارتفعت، ثم استوت في قبة السماء، ثم دلفت إلى مغربها وغابت فيه، وليس في الناس من يحفل بها، أو يلتفت إلى عظيم ما تحمله من تاريخ، أو يستهدي بشعاعها إلى غابر مجد لهذه الأمة سجدت له الدنيا كلها ذات يوم!!..

وهكذا دخل اليوم الأول من عام هجري جديد، دخول اليتيم إلى دار لا عشيرة له فيها ولا أهل. ولكنه هنا يتيم بين أهله، وغريب بين قومه وعشيرته.

وقبل ذلك بشهر أو أقل، دخلت أجراس الكنائس واحتفالاتها بيوت المسلمين كلهم، وسمعوا ذلك كله طوعًا أو كرهًا!.. وازينت الأسواق وزخرفت الحوانيت والمحال التجارية بالإضاءات الملونة وأشجار (الكريسمس) وأغرقت واجهاتها بالقطن الذي صيغت منه عبارات، وشكلت به شعارات تماما كما هو الشأن في أي سوق من أسواق أوروبا!.. وتجلت هذه الصورة ذاتها لا في الأندية والملاهي العامة فقط؛ بل تجاوزتها إلى داخل كثير من البيوتات الإسلامية العريقة!.. حيث احتفلت الأسر وتجمع أفرادها – على الطريقة الأوروبية ذاتها – في سهر صاخب إلى مطلع الفجر..

كل ذلك، احتفالا بقدوم عام ميلادي جديد!..

ويأتي بعد ذلك يوم الهجرة، بكل ما يحمله من ذكريات، وبكل ما سجل فيه من تاريخ وعز، فلا يرتفع له شعار، ولا تبتهج به دار، ولا تحس به في سوق، ولا تسمع عنه في إذاعة أو نحوها!!..

ألا يا حسرتا على الأمة التي لم يكن يعرف عز الأرض إلا بها، فأصبحت وذل الأرض لا يعرف إلا بها. أمة لا تقاسي الهوان ولكن تتعشقه، ولا تعاني من الذل بل تستريح إليه، ولا تبتلى بالضيم وإنما ترحب به!..

يا هؤلاء الناس!.. ما الذي نفعكم مما يفعله المستعمرون في افتتاحات أعوامهم الميلادية

فتقلدوهم في ذلك أتم تقليد وتسبقوهم في الابتهاج بها والصخب من حولها، وصبغ بيوتكم وإذاعاتكم بشعاراتها وإيحائها؟.. وما الذي ضركم من تاريخكم ورأس عامكم الهجري – وإنما هو عنوان وجودكم، ومسرح أمجادكم، ومنفذ سلطانكم – فتعرضوا عنه هذا الإعراض وتنسوه هذا النسيان؟

أفمن الحتم عليكم – وقد فرغتم أنفسكم لوظيفة التقليد – أن لا تعرفوا لعامكم الهجري معناه وأن لا تؤدوه حقه، إلا بعد أن يسبقكم إلى ذلك أولئك الأسياد، فيحتفلوا به لكم ويؤدوا حقوقه عنكم، فتفعلوا مثله بدوركم تقليدا، وتنهجوا نهجهم محاكاة واتباعا؟..

أم هل من الحتم إذا قام الخطباء في مساجدهم يذكرون بهذا اليوم وخطورته وينبهون الناس والمسؤولين إلى حقوق هذا اليوم والقيام بواجباته أن يظهر من إعراض الناس عنهم ما يصبح تكذيبا لهذا الحق، وعقوقا لهذا اليوم، وكفرانا لفضله وجميل أياديه؟!

يا هؤلاء الناس!.. من أنتم؛ بل ما أنتم لاولا الهجرة؟!

أي اسم كان يذكر لكم في العالم، أم أي وطن كان يحويكم، أم أي أرض كانت تقلكم أم أي حضارة كانت تنتسب إليكم، لو لم تكن الهجرة؟!..

هل كنتم تعرفون اسم الشام التي تفخرون بأمجادها، أوالعراق التي تتباهون بحضارتها أو مصر التي تعتزون بأمجادها، أو العراق التي تتباهون بحضارتها أو مصر التي تعتزون بتراثها؛ بل هل كانت لكم فلسطين تذودون عنها، أو ثروة تخيفون العالم بسلاحها لو لم يبعث فيكم هذا النبي الأمي القرشي، ولو لم ينفذ أمر ربه فيهاجر الأرض في سبيل المبدأ، ويترك الوطن في سبيل العقيدة، ولو لم يجعل الله له من أرض هجرته (المدينة) منطلقا إلى شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه؟!..

ماذا تقولون غدا لعلام الغيوب، إذا أخذكم بجريرة هذا النكران، ثم أخذكم بجريرة تقليد لا فائدة فيه واتباع لا حكمة من ورائها؟..

أولادكم يا مسلمون.. يستيقظون من طفولتهم الصغرى على الطنين والرنين اللذين تعج بهما ليلة رأس السنة الميلادية، يرتضعون منكم لبان عاداتها وتقاليدها، وتفيض آذانهم بأحاديث المعلقين من أفراد الأسرة وغيرهم على نهاية العام الماضي.. وبداية العام الجديد، والتقاليع المستوردة لتوديع ذاك واستقبال هذا!.. حتى إذا بلغ الطفل أشده استحكمت الصورة في أغوار نفسه وانصبغ بها عقلا وطبعا ووجدانا، وتهيأ له – مما غذي به – أن أيام السنة إن هي إلا دائرة مغلقة متماسكة، لا ينتهي ذيلها إلا عند رأسها الوحيد: أول كانون الثاني حيث رأس السنة الميلادية!..

أما الهجرة والحديث عنها، فكلام كالطيف كان يردده الأجداد.. وأما مكانها من دائرة العام وأيامه، فقد عفى عليه الصدأ والقدم، ولم يبق منه إلا رمز كالطلل، وأشبه ما يكون بشارة على قبر مهجور ربما ذكر بعض العابرين بقراءة الفاتحة!..

أفيسعدكم يا مسلمون أن تربوا أولادكم على هذا النهج؟..

أفـلا يـؤرق لكـم بـالا، أن تقبلـوا إلى الله غـدا تحملون أوزار هـذه التربية على ظهوركم عـذابا من الله ونكالا؟..

* * *

أكتب هذا الكلام، وإن ذكرى مولد رسول الله ﷺ، تلوح لي من بعيد، ولعل كلامي هذا لن ينشر إلا والمسلمون في أنحاء عالمهم الإسلامي يستقبلونها، وينصرفون إلى الاحتفاء بها والاحتفال لها.

ولكنـي أعتقـد أن المـسلمين مهـما فعلـوا في استقبالهم لهذه الذكرى، فإن جميع ما يفعلونه لن يقع موقـع القبـول مـن صـاحب الـذكرى محمـد عليـه الصلاة والسلام.

إن الأمـة التـي تـصدق في احتفائهـا بمولـد نبيهـا محمـد ﷺ، لا تـذهب هـذا المـذهب العجيـب في احتفالاتها التقليدية برأس السنة الميلادية. وقد علمت جيدا أنها لا تسترضي بذلك قلب عيسى عليه الصلاة والـسلام، وإنـما تـسترضي بـه نظـرة أجنبيـة إلى هـذه الأمة!.. نظرة ترمي بشرر من الحقد على دينها وغابر عزها وأمجادها!.. نظرة لا تقوم الدنيا إلا من خلال الأحقرين: متعة الفرج ومتعة البطن!..

فتعـالوا نكـن صـادقين – يـا مـسلمون – في احتفالنا بذكرى مولد نبينا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه المرة. ولنفسر صدقنا هذا بسلوك يمسح عنا ماضي آثامنا ويرضى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنا.

إن عواطفنـا الإسـلامية – ولله الحمـد – قـد غـدت مـشبوبة وناضـجة ومـا رأيتهـا في عهـد مـن العهود أنضج منها اليوم.

إن كـلا مـن ظـروف الحـرب والـسلم، وموقـف الـدول الأجنبيـة – صـديقة وعـدوة – منهـا، وعـبر الحيـاة التي نراهـا مـن حولنـا والمـآسي التي لاحقتنا يوم ابتعدنا عن حمى إسلامنا – كل ذلك قد أورثنا يقينا لا يتزعزع بأن الإسلام من حياتنا كالروح من الجـسد وكالمـاء البـارد مـن الكبـد الحـرى.. وبـأن مشكلاتنا – على اختلافها – لا يمحقها إلا الإسلام عقيدة أولا ونظاما وأخلاقا ثانيا.

وقد ولى العصر الذي كان يتحمل فيه بعض النـاس بالإلحـاد، ويجـاهر بالفسوق والكفـران. إنهـا اليوم (موضة) قديمة، وتقليعة بائدة.

إن ملاحدة الأمس، يتنافسون في عرض عظمة الإسلام اليوم!..

وإن الدنيا كلها قد علمت أن الإلحاد ليس إلا ظـاهرة مرضـية، تتسلل إلى الفكـر بواسـطة جرثومـة من أهواء النفس، أو عقدها، أو عصبيتها، أو ردود فعلهـا!.. ولـيس بعـد الإسـلام مـن ملجـإ لأي فكـر حر، بعد أن تخلص من وباء الإلحاد.

وإذًا فما جمودكم اليوم يا مسلمون؟.. يا مسلمون: علماء ومثقفين ومدرسين وعمالا وموظفين؟

كيـف تـستقبلون مولـد نبيكـم محمـد ﷺ، مـن سـجن هـذا الجمـود، وقـد علمـتم أن ميراثـه الوحيـد الـذي وضـعه في أعنـاقكم إنـما هـو النهـوض بأعبـاء الدعوة إلى الله؟..

أو لا تزالون تعيشون في تلافيف تلك الضلالة التي تزعم على ألسنة كثير من الجهال بأن للإسلام (رجـال ديـن) هـم المـسؤولون عـن الـدفاع عنـه إذا

هوجم، وعن إحيائه إذا ذبح، وعن إعادة تشييده إذا هدم، وأن غيرهم ليسوا إلا نظارة يتخذون أماكنهم أمام المسرح؟!..

لقد آن لنا، جميعًا، أن نستغفر الله من هذه الضلالة البشعة، وأن نقف خاضعين خاشعين أمام قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم أمام قول رسول الله محمد -عليه الصلاة والسلام-: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

ثم أن نبسط أيمانا صادقة إلى الله عز وجل نبايعه بها على أن نكون – وقد انتسبنا إلى حزبه – أعضاء عاملين لا أشخاصًا تقليديين.

إنكم لتكثرون الكلام في هذه الأيام عن الكفاح، وتسمعون عنه كثيرا، ولكن اعلموا أن أهم كفاحٍ يستنفر له الإسلام المسلمين جميعا، في هذا العصر، إنما هو الدعوة إلى الإسلام والتعريف به، بقلب متحرق صادق لله عز وجل.

ولست أعني أن قتال العدو الذي يستحل أرضنا يأتي في الدرجة الثانية من هذا الكفاح، أو أنه ينبغي أن يؤخر إلى ما بعد قيام المسلمين بواجب الدعوة إلى الإسلام، لا .. ليس هكذا. فإن العدو الجاثم في أرضنا صائل ومقاومة الصائل واجب مستقل بذاته، يكلف به المسلمون بقطع النظر عن الكفاح الذي نتحدث عنه. فإذا خرج العدو من ديارنا، فإن ملاحقته بعد ذلك بالدعوة إلى الإسلام والقتال في سبيلها، هوالكفاح.

إن القاعدة العريضة الكبرى التي يجب أن ينطلق منها المسلمون جميعًا، الكفاح في سبيل الله اليوم، إنما هي الدعوة إلى الإسلام على شتى المستويات وبكل الطرق والأساليب ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولو نهض المسلمون اليوم، أو أكثرهم أو كثرة عظيمة فيهم، بهذا، لا يبتغون إلا وجه ربهم، لا يسوقون أمامهم عصبية أو غرضا أو ضغينة لفتح الله على أيديهم وبألسنتهم آلاف القلوب الموصدة، ولرأيت للمسلمين مجتمعًا إسلاميًّا سليمًا غير هذا الذي تراه اليوم.

ولكن آفة المسلمين أحد بلاءين، بل كلاهما معا!..

آفة المسلمين أنهم أحد رجلين: رجل يتقلب في نعيم دنياه منصرفا عن الإسلام وشأنه، لا يبالي بالمصير الذي ينتهي إليه. وآخر يدعو إلى الله والإسلام بزعمه، ولكن بسلاح من عصبيته وكبريائه، وبسائق من حقد متمكن وراء صدره!.. وقليل جدا في المسلمين من ينهض بواجب الدعوة إلى الله دون أن يخلط بذلك حظ نفسه ودافع عصبيته.

وما السر في أن أكثر المنصرفين عن الإسلام لا يلتفتون إلى دعوة الداعين إليه ولا يتأثرون بكلامهم؟..

السر أن أكثر هؤلاء الدعاة قد أصبح مظهر الدين جزءا من شخصياتهم وأصبحت مظاهر الإسلام من مقومات ذاتيتهم، فتراهم يدافعون عن هذه المظاهر من حيث يدافعون عن شخصيتهم ومن حيث يذودون عن ذاتيتهم وكرامتهم. ويحس

الآخرون بهذا، فتستيقظ عوامل العصبية في نفوسهم، ويقوم من ذلك حاجز يحول دون وصول كلمة الحق صافية إلى أفكارهم.

وإنه لمنزلق خطير ما ينبغي أن يقع فيه المسلم إذ يدعو إلى الإسلام، وإنما يترفع عن الانزلاق فيه بالتنبه الدائم إلى حقيقتين عظيمتين:

الأولى: كراهية معصية العاصي لا كراهية شخصه، فإن كراهية الشخص من حيث ذاته حقد يأباه الإسلام وينهى عنه. وما ينهى الإنسان عن فسوق أو عصيان أو كفر إلا شفقة على المتلبس به.

الثانية: أن لا يخلط الإنسان بين دافع الانتصار لربه والانتصار لذاته، وما أدق الفرق بينهما لمن لا يكون دائم الرقابة على نفسه.

رب رجل ذي مظهر ديني يقابله بعض الفاسقين بتصرف ساخر من الدين، فيأخذه الهياج ويتملكه الغضب، وربما بطش به وضربه.. وهو لو تأمل فيما قد دفعه إلى ذلك لرأى أنه حب الانتصار لشخصه، إذ كان في تلك السخرية جرح لشخصيته الدينية.

وآية ذلك أنه لو كان متجردا عن هذا المظهر، لمر بذلك الفاسق غير مكترث به ولا ملتفت إليه، ولما حرك العصيان أو السخرية لديه أي غيرة أو هياج.

وإنما يحبس الفاسق في فسقه على الأغلب – أنانية أو عصبية تستفحل بين جوانحه، فلا يتأثر بتذكير ناصح ولا بتنبيه واعظ. والشيء الوحيد الذي يملك إذابة هذه العصبية والأنانية فيه، أن يشعر شعورًا واضحًا بتجرد الإنسان الذي ينصحه ويذكره، وأن يقتنع بأنه لا يستهدف من نصيحته استعلاء عليه، أو تغلبًا، أو تقوية لعصبته أو عصبيته. وإنه إنما يكلمه من مستوى الحب له والشفقة عليه.

فإن زاد الداعي إلى ذلك أن راح يقابل الإيذاء بالصفح، والسخرية بالرضى، واستدبر حظ نفسه والانتصار لذاته، فإن ذلك من شأنه أن يوقظ كوامن الإنسانية عند الطرف الآخر، ويحيي في فكره موضوعية البحث والنظر.

وجل القائل في محكم كتابه لنبيه محمد ﷺ عن المنافقين الذين كانوا يستقبلون دعوة الإسلام بأهواء نفوسهم بدلا من أفكار عقولهم -: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾.

وانظر كيف طبق الرسول وصية ربه جلا جلاله، يوم بلغه قول رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة المريسيع عن الرسول والمهاجرين: قد نافرونا وكاثرونا في دارنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش «يقصد المسلمين» إلا كما قالوا: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل!..

وحسب بعض الصحابة أن النبي ﷺ قاتله.. وقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أضرب عنقه يا رسول الله؟.. وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بلغني يا رسول

الله أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلا فمرني أنا أحمل إليك رأسه!..

ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبى أن يمسه بأذى وقال لابنه: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

لقد كان من آثار هذا الموقف من النبي عليه الصلاة والسلام، أن انفض عن ابن سلول كثير من قومه وجماعته، فكان إذا حدثهم بحديث عن المسلمين بادروه بالمعارضة والتعنيف، ولقد قال عليه الصلاة والسلام لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك:

كيف ترى يا عمر؟.. أما والله لو قتلته يوم قلت: أقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته..

* * *

يا مسلمون.. لقد آن لنا أن نستيقظ إلى حقيقة الدنيا التي من حولنا، وأن يتعرف كل منا على هويته:

إننا عبيد أذلاء، مهرت أعناقنا بختم العبودية لله عز وجل.

إننا جميعا موظفون.. ولكن في ديوان الله عز وجل.

فلننهض جميعا بالوظيفة التي كلفنا بها سيدنا.. ولا يهمنكم رزق ولا مال فإن سيدكم قد ضمن لكم ذلك كله، إن أنتم قمتم بمسؤولياتكم الوظيفية تجاهه: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ووظيفتنا نحن معشر العبيد لله، النهوض بالدعوة إلى دينه في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومعاملنا ووظائفنا وأسواقنا، وبين زملائنا وأصدقائنا، لا نقيم محبة أو صداقة مع إنسان إلا على أساس الدعوة إلى الله، ولا نكره أو نبغض إنسانا إلا في سبيل الله.

لا نحقد.. لأن الحقد دخان لنيران الانتقام الشخصي، وشخصياتنا ذائبة لا وجود لها في طريق الدعوة إلى الله.

لا ننحاز لعصبية.. لأن العصبية مظهر لأنانية الجماعة، ولا أنانية فردية أو جماعية في بوتقة العبودية المطلقة لله.

لا نطمع في دنيا أو مصلحة.. فقد كفانا مالك الملك كله، كل طمع فيمن دونه..

قطب سعينا كله في الدنيا هو البحث عن الحقيقة.. الحقيقة الكبرى التي تندرج في تضاعيفها حقائق الدنيا أجمع. فإذا اهتدينا إليها فإن من حق الأسرة الإنسانية كلها علينا أن نعرض لها سبيل هذه الحقيقة. وخيانة كبرى أن يهتدي أحد الأخوين إلى الطريق السليم، فينحط فيه معرضا عن أخيه الذي أسلم نفسه لمتاهة توصله إلى الهلاك.

هذه وظيفتنا جميعا.

فإن نحن قمنا بها، كان ذلك خير إحياء لذكرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك أقصر سبيل لنصر متكامل قريب، ومجد صادق لا ينال منه عدو، وقوة تخيف منكم الدنيا كلها.

يأتيكم ذلك كله وأكثر.. من حيث لا تحتسبون.

الهجرة النبوية أسبابها ونتائجها

بقلم: الدكتور/ أحمد الحجي الكردي

لم تكن الهجرة النبوية رحلة إجمام قام بها النبي - ﷺ - وأصحابه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة للنزهة أو الترفيه، كما لم تكن هربا من العذاب الشديد الذي كانوا يلاقونه على أيدي بعض زعماء قريش ابتغاء الخلود إلى الراحة والسكنية، وإيثار العافية على المعاناة، ولم تكن أيضا تخلبًا عن المسؤولية عن البلد الحرام الذي بقي أبد الدهر موئلا للأتقياء والعباد من بني البشر، ولا فرارًا من الزحف، ولكنها كانت مرحلة ضرورية لابد منها لسلامة سير الدعوة الإسلامية بعد أن كادت تصل إلى طريق مسدودة. فهي إذن مرحلة من مراحل الكفاح في سبيل الله تعالى، وخطوة من خطوات الدعوة إلى الإسلام كان لها أسبابها الكثيرة المتشابكة.

وأهم هذه الأسباب:

(١) اشتداد العذاب الذي كان يمارسه كفار قريش ضد المستضعفين من المؤمنين، ولو ذهبنا نتحدث عن أساليب التعذيب الوحشية التي كان يمارسها بعض زعماء قريش ضد هؤلاء المستضعفين لكتبنا في ذلك المجلدات دون أن تنتهي هذه الصور. وحسبنا أن – نشير إلى قصص تعذيب بلال وياسر وسمية وابنهما عمار، وغير ذلك.

وينبغي أن نتنبه هنا إلى أن هذا التعذيب لم يكن هو الدافع إلى الهجرة أو أحد الدوافع إليها بقصد الخلاص من العذاب، ولكنه الدافع إليها بغية تمكين الإسلام من الانتشار، ذلك أن العذاب كان يثني كثيرا من الهمم المتشوقة إلى الدخول في الإسلام من الدخول فيه خشية أن يصيبها من العذاب ما يصيب هؤلاء المستضعفين. وذلك بدليل أن عدد المسلمين ازداد زيادة كبيرة بعد الهجرة وخلاص المؤمنين من هذا العذاب، كما أن أحدا من المؤمنين الذي لاقوا العذاب الشديد لم يرجع عن إسلامه، بل فضلوا جميعا الصبر على العذاب واحتمال الأذى والموت على الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان، وما قصة ياسر وسمية زوجه عنا ببعيدة.

(٢) الحصار الاقتصادي:

ذلك أن الكفار عندما شعروا بعجزهم عن إيقاف مد الدعوة الإسلامية رغم كل أنواع العذاب الذي مارسوه ضد المسلمين قرروا محاصرة بني هاشم والمسلمين محاصرة اقتصادية كاملة تحول بينهم وبين ضروريات العيش البسيط، وتمنعهم من الاتصال بأحد من العرب أو غيرهم، فاتفقوا على كتابة الصحيفة التي علقوها في جوف الكعبة، تلك التي عانى منها بنو هاشم والمسلمون أنواع العذاب والحرمان حتى كادوا يأكلون أوراق الشجر من شدة

الجوع، ولقد كان باستطاعتهم أن يحتملوا ذلك كله لو أنه أتيحت لهم معه حرية ممارسة الدعوة إلى الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، ولكن الأسى كان يحز في نفوسهم عندما أضحت هذه الصحيفة المشؤومة حائلا بينهم وبين الاتصال بالعرب في غير المواسم الدينية القليلة مما يجعل دعوتهم تسير نحو الاختناق في قمقمها لا محالة لو استمروا هم على إقامتهم في مكة.

هذا ولا يضر أن الصحيفة نقضت قبيل الهجرة، ذلك أن آثارها لم تزل باقية، وأنى لها أن تزول وقد أدمت قلوب المسلمين وقرحت أكبادهم، وأهاجت أحقاد العرب عليهم.

(٣) وفاة الناصرين لرسول الله -ﷺ- ذلك أن الله سبحانه قيض لرسوله الكريم ناصرين له من أهله يواسونه ويخففون من آلامه، ويدافعون عنه ويمنعون أذى الكفار من أن يصيبه، ذلك الذي وصل إلى درجة لا يستطيع إنسان عادي احتمالها، وهما خديجة بنت خويلد زوجه الكريمة التي وقفت إلى جانبه بمالها وجاهها، ونصبت من نفسها مواسيا لجراحه ومخففا لأحزانه، وعمه أبو طالب، ذلك الإنسان الذي وقف إلى جانب النبي -ﷺ- على كفره في جميع المواقف يدافع عنه ويحميه وينتصر له وهو من هو في مكانته ومقامه من قريش. أما الآن فقد ماتا متتابعين في عام واحد وألحق ذلك الحزن العميق بنفس النبي -ﷺ- لفقده المواسي في الملمات، والمدافع في المهمات، حتى أصبح عرضة للعذاب الشديد الذي يحول بينه وبين تنفيذ مهماته ومتابعته دعوته، الأمر الذي يتوجب معه الانتقال إلى دار أخرى وقوم آخرين يحمونه ويدافعون عنه ويؤمنون به.

(٤) كبرياء قريش وتعاليها:

فقد كانت قريش تتمتع بمكانة كبيرة بين العرب منذ القديم، ذلك أنها حامية بيت الله تعالى، الذي يجتمع فيه العرب جميعا في كل عام من شتى أرجاء الجزيرة العربية للحج والتجارة وإنشاد الشعر والأدب. وقد حالت هذه المكانة بينها وبين الدخول في الإسلام الذي يسوي بين كل الناس قرشي وغير قرشي، وعربي وغير عربي. ذلك أن الإسلام دائما يعلن المساواة التامة بين جميع البشر، وأن السبب الوحيد للمفاضلة بينهم هو تقوى الله تعالى. وقد حاول النبي الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – طيلة ثلاثة عشر عامًا أن يصل إلى نفوس القرشيين عبر تلك الكبرياء، وذلك التجبر دون أن يمسه بسوء أو يقضي عليه لعلهم يرجعون عن غيهم وينتهون من غفلتهم، فرضي بتخصيص مجلس خاص بهم بعيدا عن عامة المسلمين، ولكنهم أبوا إلا العناد والتعالي على الإسلام والمسلمين حتى لم يعد بد من كسر هذه الكبرياء والتعالي واستعمال السلاح والقوة، ولكن أنى للنبي -ﷺ- هذه القوة لو لم يهاجر إلى المدينة المنورة لإعداد الجيش والمجاهدين.

ذلك ما اضطر معه النبي – عليه الصلاة والسلام آخر الأمر إلى الرحيل من ديارهم ثم العودة إليهم بعد ذلك عودة الفاتحين المنتصرين، يكسر عنادهم وتعاليهم بحد السيف وسنان الرمح فتتفتح قلوبهم بعد أن زالت الأغلال عنها وتنيخ لصوت الحق، وتحمل لواء الفضيلة والهداية،

وتدخل في دين الله أفواجا.

هذه هي أهم الأسباب التي دفعت النبي -ﷺ- إلى الهجرة من بلد الله الحرام مسقط رأسه ومحط أمله وأحب بلاد الله إليه. ذلك أن الدعوة التي أنزلت عليه من الله تعالى وأمر بتبليغها للناس كافة كانت أحب إليه من بلده ومن الدنيا جميعها، فغادرها وهو يناديها بنفس مكتئبة وقلب حزين: إنك لأحب بلاد الله إلي، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت (أو كما قال).

هذه أهم الأسباب التي دفعت النبي -ﷺ- إلى الهجرة، وهي بمجموعها تتركز حول حرصه -ﷺ- على سلامة سير الدعوة الإسلامية نحو القلوب المقفلة والنفوس المظلمة.

والآن لا بد لنا أن نتساءل: هل حققت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة الغاية المرجوة منها..؟

وللإجابة على ذلك فإن علينا أن نتطلع إلى النتائج التي انتهت إليها هذه الهجرة الكريمة، وإلى سير الدعوة الإسلامية بعدها. وإذا ما فعلنا ذلك فإننا سوف نرى أن الهجرة النبوية كانت نقطة تحول كبرى في طريق الدعوة الإسلامية، فقد انتقلت بها من عهد إلى عهد آخر يختلف في كثير من جوانبه عن العهد الأول.

ويتجلى ذلك في النقاط التالية:

(١) حرية الدعوة إلى الله تعالى

فقد أصبح النبي -ﷺ- في المدينة المنورة حرا طليقا يدعو إلى ربه سبحانه من شاء في أي وقت شاء، دون ما رقيب عليه أو معارض له. فهؤلاء هم الأوس والخزرج في المدينة يلتفون حوله ويدافعون عنه ويحمونه ويؤمنون به، وهم من هم في قوتهم وجلدهم، فقد أعطوه العهد والميثاق يوم العقبة على شركهم وعدم إيمانهم به بعد لا ينالونه بأذى، لأنهم بصدد دراستهم لأحواله ودعوته وفي طريقهم للإيمان به.

هذه الحرية لم تكن متاحة للنبي -ﷺ- في مكة، فقد كان أذى قريش يناله وينال كل من يتصل به أو ينصت إليه فيصرف ذلك الناس عن الإيمان به.

(٢) الخلاص من عذاب قريش وأذاها

فقد كانت قريش تنال المسلمين والمستضعفين منهم خاصة بأذى شديد لا يحتمله بشر والأمثلة على ذلك كثيرة لا تعد. وهذا العذاب صارف ولا بد لكثير من النفوس عن التفكير في الإسلام والإيمان به لما ركبت عليه النفوس الإنسانية من ضعف خلقي. أما في المدينة فقد أصبح المسلمون في أمان الله بعيدين عن أن تنالهم أيدي المشركين بأذى، فإن المدينة بلد حصين. وأن الأنصار قوم أشداء وأقوياء وقد آخوا المهاجرين والتزموا بحمايتهم والدفاع عنهم.

(٣) تفرغ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لبناء الدولة، فقد أمضى في مكة ثلاثة عشر عاما كان فيها مشغولا ببناء الفرد لم يتحول عنه، أما بناء الدولة والمجتمع المسلم فهو ما لا سبيل إليه في مكة مع قلة العدد وشدة العدو. أما الآن فقد زاد عدد المسلمين وتفقهوا جميعا في دين الله تعالى، وخف عنهم أذى قريش، لذلك فإننا نرى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد

انصرف إلى بناء الدولة الإسلامية وتنظيم المجتمع المسلم على أسس مخططة مدروسة أثمرت أقوى دولة عرفها التاريخ البشري تناسقا وتماسكا وحضارة ورفاها. دولة تحمل النور والهداية والعلم للعالم كله، فتنير بذلك قلوبا مظلمة، وتفتح أفكارا مغلقة، وتهدي نفوسًا طالما تعطشت إلى العدالة والحرية والحق، وتخلص بذلك الإنسانية المعذبة كلها من الهاوية التي كادت تتردى فيها. فحق لها أن تكون بذلك كله خير دعوة وخير رسالة حملتها خير أمة أخرجت للناس.

وعلى ذلك تكون الهجرة النبوية نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الإسلامية، انتقلت بها من مرحلة بناء الفرد إلى مرحلة بناء الجماعة والدولة.

وقد واكب القرآن هذا التحول، فبينما كان يُعنى في مكة المكرمة ببناء العقيدة والأخلاق وترسيخ القيم وغسل الأفكار والقلوب مما ران عليها من الجهل والضلال، أصبح يعنى في المدينة المنورة بأمور التشريع وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع من النواحي المختلفة المادية منها والمعنوية وبقيمها على أسس من العدالة وتكافؤ الفرص أمام جميع المسلمين؛ بل أمام جميع الناس على اختلاف لغاتهم وأجناسهم ودياناتهم، حتى أن النبي -ﷺ- كان يعلن دائما قوله الشريف: (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة)، ويعلن قوله: (كلكم لآدم وآدم من تراب)، فإنه ليس بعد هذا الإنصاف إنصاف، وليس بعد هذه العدالة عدالة على وجه الأرض.

(٤) تفرغ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للوقوف في وجه الكفر، وصده بالدليل والبرهان، وبالقوة والحرب. فإنه من المعروف أن للضلال شوكة في كثير من الأحيان لا يمكن ردها بالدليل والبرهان وحده، ولا بالحوار فقط؛ بل إنه يحتاج في كثير من الأحيان مع الدليل والمجادلة بالحسنى إلى السلاح، وهو ما لم يكن متيسرا للنبي -ﷺ- في مكة مع قلة عدد المؤمنين وضعف قوتهم أمام كبرياء قريش وشدتها، ولكنه تيسر للنبي الكريم -ﷺ- بعد ذلك في المدينة المنورة. فقد استطاع أن يعد جيشا من المؤمنين تمكن به من أن يدرأ الأذى عنهم، كما استطاع به أن يفك الأقفال الثقيلة التي جثمت على صدور كفار قريش وغيرها من العرب، فلم تدع النور الإلهي يصل إليها إلى أن فكّها سيف المسلمين، وأزال الغشاوة التي كانت على تلك القلوب، وهو ما يشير إليه النبي الكريم -ﷺ- بقوله: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»، ذلك أن الفقه هو استنارة القلب بنور الله بعد إزاحة غشاوة الكفر والعناد والشرك من فوقه.

وبذلك نستطيع أن نؤكد أن الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة قد آتت أكلها وثمارها وأنتجت كل نتائجها المرجوة منها، وكانت بذلك فتحا كبيرا في تاريخ الدعوة الإسلامية مما حدى بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – أن يجعل منها منبثقا للتاريخ الإسلامي، إشادة منه بمكانتها وأهميتها. وحق له أن يفعل ذلك. رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين وعن تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

العلامة محمود أفندي ... قمة عرفت ولم تكتشف

بقلم: التحرير

في يوم الخميس ٢٣/ ذي القعدة عام ١٤٤٣هـ = ٢٤/ يونيو ٢٠٢٢م استأثرت رحمة الله تعالى بالداعية المخلص العلامة محمود أفندي، رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيح جنانه مع الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وذلك عن عمر يناهز ٩٣ عامًا بعد أن عاش حياةً حافلةً بالأعمال والجولات والرحلات الدعوية والتوجيهية في جميع أنحاء تركيا وخارجها. وجاءت وفاته صاعقة على الشعب التركي ومحبيه وأنصاره، فأبكى هولُ المصاب آلاف العيون، وأذرف الدموع، وأحزن القلوب، و فطَّر الأفئدة، وأطار الأنفس شعاعًا.

وكأنه يقول بلسان حاله:

إذا مات مثلي مات شيء

يموت بموته بشر كثير

وحقًّا قيل:

ماتوا بموتك غير أنّ شخوصهم

نصب الهموم مقيمة لم تقبر

لقد بكى عليه القريب والبعيد والداني والقاصي في تركيا، وفي العالم العربي وفي شبه القارة الهندية الشاسعة الأطراف أيضًا، رجال لقيهم ولقوه، وجلسوا إليه، واستفادوا منه، واستفاد منهم:

يبكيك ناءٍ بعيدُ الدَّارِ مغترب

يا لَلْكهولِ ولِلشُّبّانِ لِلْعَجَبِ

وحقا، إن رحيله لرزء ليس مثله الأرزاء، التي يحسن فيها العزاء:

دهى الجزيرة أمر لاعزاء له

هوى لها أحد وانهد ثهلان

ولانقول في هذا المصاب الجلل إلا ما يرضي ربنا سبحانه عز وجل: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، ولكل شيء عنده أجل مسمى، وإن العين تدمع، والقلب يحزن، لولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر تابع للأول، لوجدنا عليك يا محمود أفضل مما وجدنا، وإنا على فراقك لمحزونون.

أيّتها النفس أجملي جَزَعا

إنّ الذي تحذرين قد وقعا

ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبكيتهُ

عليهِ؛ ولكن ساحةُ الصبرِ أوسع

و

سأبكيك حتى تنفد العين ماءها

ويشفى مني الدمع ما أتوجع

والمتابع لمراسم جنازة العلامة محمود يكاد يجزم أن العالم التركي؛ بل العالم الإسلامي لم يشهد في تاريخه الحديث جنازة مثل جنازته، فقد استعدّ مسجد الفاتح منذ صلاة العشاء في يوم الخميس لجنازته، التي أقيمت في اليوم التالي، وقضى الأغلبية الساحقة من المصلين يومهم وباتوا في الجامع، وهم ينتظرون وقت الصلاة عليه، في حين بقي من صلى الفجر في باحات الجامع في انتظار صلاة الجنازة التي أقيمت بعد صلاة الجمعة. وكان ذلك يومًا مشهودًا، فقد غصت ساحات الجامع

والطرقات والشوارع الرئيسية والفرعية حول الجامع بالمصلين، وامتدت صفوفهم إلى قرابة كليومترين، ويقدر عدد المصلين عليه بـ(٣) ملايين شخص، وهو ما لم يحدث في تاريخ الدولة التركية.

وفي الوقت الموعود نقلت جنازته إلى جامع الفاتح في قافلة عظيمة انضم الآلاف لها لمراسم التشييع، التي شارك فيها الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، و وزير الداخلية، و وزير الشؤون الدينية، بالإضافة إلى وزراء آخرين، و زعماء الأحزاب المختلفة والشخصيات السياسية والدينية البارزة و عشرات الآلاف من الأتراك الوافدين من القرى والبلدات والولايات البعيدة لشهود جنازته مما ينم عن شعبية الفقيد الغالي، ومكانته المرموقة في سويداء قلوب الشعب التركي. وحمل جنازته الرئيس التركي بجانب عدد من الوزراء، ثم نقل جثمانه إلى مقبرة «ساكز أغاجي» في منطقة «إدرنة كابي»، حيث وُرِّي جثمانه.

كان رحمه الله تعرض في آخر فترة من حياته لحالة مرضية عملت على تدهور وضعه الصحي وإنهاك قواه، وتم نقله إلى المستشفى ليتلقى العلاج، وجاءه الأجل المحتوم- الذي إذا جاء لايتأخر- بعد دخوله المستشفى بأيام معدودات، وكانت القنوات التركية بثت له من قبلُ صورته وهو على كرسي متحرك، ولايقدر على المشي على قدميه.

محمود أفتدي قامة شاهقة بين الرجال، وقمة شامخة سامقة من قمم العلم والفضل في تركيا والعالم الإسلامي، عاش حياة كريمة معلمًا مرشدًا ومصلحًا دينيًّا اجتماعيًّا. وترددتُ كثيرًا حين تأكد عزمي- وأنا بعيد الدار عنه، ولم أقرأه إلا قليلا، ولم أجلس إليه من قبلُ، ولكن سمعت عنه الشيء الكثير على لسان بعض مشايخي في جامعة دارالعلوم /ديوبند، حين زار العلامة محمود أفندي هذه الدار في طريقه إلى «سرهند» و قفوله منها- على الكتابة حول هذا العلَم: سيرته ومسيرته، خشيةَ أن أسجل عنه مالايرتقي إلى مكانته السامية، ومنزلته العالية في عيون الناس، وعيون الشعب التركي، فلا أوفي هذا العلم العبقري الفذ، وأعماله وجهوده ومساعيه الجبارة في خدمة العباد والبلاد حقه.

محمود أفندي اسم بارز لامع ساطع في تاريخ تركيا عامةً، وتاريخ الحقبة المليئة بالأحداث الأليمة والمضايقات للدعاة المسلمين، وبالاغتيالات والأشواك والعقبات في طريق كل من كان يتمسك بدينه، ويعتز بشريعة الإسلام، ويعض عليها بالنواجذ، وهو كالقابض على خبط الشوك أو جمرالغضى، وبين السندان والمطرقة.

مولده:

ولد العلامة محمود أوسطي عثمان أوغلو المعروف بـ«محمود أفندي»، في قرية «طوشان لي» ببلدة «أوف» التابعة لولاية «طرابزون» شمال شرقي تركيا عام ١٩٢٩م، في أسرة كثيرة العناية بالتعليم الديني؛ فقد كان أبوه علي أفندي إمام المسجد في قريته، وكثيرًا ما كان يدعو رافعًا يديه إلى السماء أن يهب الله تعالى له ولدًا صالحًا بارًا. فكان محمود دعوة أبيه ليل نهار. فسر بمولده سرورًا عظيمًا إذ حقق الله تعالى أمنيته. وحفظ محمود القرآن الكريم وهو ابن عشر سنوات، وتلقى مبادئ العلم على والده «علي أفندي»، وعلى والدته «فاطمة خانم» التي كانت من فضليات النساء، المعنيات بالعلوم الدينية، والمشهود لهن بالورع والتقوى، وكانت تُعِدُّ لجنينها الذي حملته في بطنها لباسًا من التقوى، نسجته بخيوط من الذكر وتلاوة القرآن الكريم.

ثم أرسلوه إلى منطقة (قيصري) لدراسة علم النحو والصرف واللغة الفارسية، على يد الشيخ تسبيحي زاده،- أحد كبار علماء المنطقة-، ثم أخذ عن علماء آخرين علوم

اللغـة العربيـة والبلاغـة و الكـلام والحـديث والفقـه والتفـسير. و توجـه والـده إلى مكـة المكرمـة لأداء الحـج فمرض وتوفي فيها، ودفن بمقبرة المعلى عند قبر السيدة خديجة رضي الله عنها. فكانت وفاته كارثة كبرى لهذا الشاب اليافع الذي فقد ساعده ومعينه.

و واصل الشاب دراسة العلوم الشرعية، حتى حصل على الإجازة في العلوم الدينية، ومن أبرز من تلقى العلم الديني عليه هو شيخه علي حيدر الذي كان أعاد العمل بطريقة إسماعيل أفندي النقشبندية، وكان صاحب مسجد إسماعيل آغا أفندي في الفاتح.

وكان إسماعيل أوغلو من أهل الفتيا المشهورين في الدولة العثمانية، وكان يفتي على المذاهب الأربعة، ولما نجح مصطفى كمال أتاترك في تسلم السلطة في تركيا وقيادتها، أغلق المسجد المذكور أعلاه، وأمر بتحويله إلى إسطبل. فجاء الشيخ علي حيدر وفتح المسجد، وبدأ ينشر العلم، فكان له أتباع وأصحاب وأنصار من الشباب والشابات.

وبعد انقلاب الاتحاد والترقي ترددت الأنباء بتحويل منطقة «تشارشمبا» حيث مسجد السلطان سليم ياووز في الفاتح- التي كانت تحتل موقعًا حيويًّا على البوسفور، ويوجد بها كاتدارئية فنار المهمة تاريخيًّا، كما أن إسطنبول تحتل مكانةً خاصةً لدى الكنيسة بشكل عام- بتحويل هذه المنطقة إلى الفاتيكان، فعارضت جماعة إسماعيل آغا، ومعهم الشيخ علي حيدر، والشيخ محمود أفندي ، لهذا المشروع الأليم الممض، وحرضوا أتباعهم على شراء المنطقة بمالهم الشخصي، فقام الميسورون منهم بشراء البيوت، و وقفوها لصالح الجماعة امتثالا لأوامر الشيخين علي ومحمود. ولما تقاعد الشيخ علي حيدر من إمامة جامع إسماعيل آغا خَلَفَه الشاب محمود أفندي في الإمامة عام ١٩٩٦م، مما هيأ له فرصة أكبر لخدمة العباد والبلاد، وخدمة الشعب التركي وتقريبه إلى الدين، وبث الوعي الديني بينهم.

وبدأ محمود أفندي سلوكه في الطريقة على شيخ الطريقة النقشبندية الكمشناونية الشيخ أحمد أفندي مابسينوي؛ ولكن تبين له من خلال الرؤيا الصادقة أن مرشده في قطع طرق السلوك هو الشيخ علي حيدر الأخسخوي، فكانت نفسه ترنو إلى السلوك على يديه حتى تهيأت له فرصة ذلك حين لقي عام ١٩٥٢م إبان التحاقه بالجندية.

خدماته وأعماله:

قام العلامة محمود بخدمات جليلة مشكورة عند الله وتعالى وعند عباده، وتعتبر جماعته- جماعة محمود أفندي- أكبر الجماعات الدينية التركية عددًا، وأقواها تأثيرًا سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا. واتسع نطاق تأثير هذه الجماعة ليشمل كافة أرجاء المحافظات التركية، بعد أن خصص العلامة محمود ثلاثة أسابيع سنويًّا للقيام بالجولات في المدن التركية لتعليم الناس ودعوتهم للعودة إلى هويتهم الإسلامية، كما استمع خلالها لمشاكلهم ومعاناتهم، وسعى سعيه لإيجاد حلول مناسبة لها، فاكتسبت جماعته طابع العالمية بدلا من أن تبقى حبيسة في منطقة من مناطق تركيا، وخاصة بعد أن تجول في عدد لا بأس به من دول العالم أمثال الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، وآسيا الوسطى حيث أصبح له آلاف من الأصحاب والمعجبين به.

وكان للعلامة محمود وجماعته أثر واضح المعالم وضوح الشمس في رائعة النهار في تضييف شيوخ سوريا الذين لجؤوا إلى تركيا منذ الأوضاع المتدهورة في سوريا، وصار لهؤلاء الشيوخ دروس رسمية في مقارّ الجماعة والمساجد التي توجد بها كمسجدي إسماعيل آغا ويافوز سليم، وكان المجلس الإسلامي

السوري يعقد اجتماعاته الرسمية في إحدى صالات وقف إسماعيل آغا مدة طويلة، وكانت هذه الجماعة تقدم الخدمة الفندقية لأعضاء المجلس القادمين من خارج إسطنبول لحضور الاجتماع.

ميزة هذه الجماعة وسمتها البارزة:

تمتاز جماعة الشيخ محمود أفندي عن غيرها بالاجتناب التام عن العنف، فرغم كثرة المريدين وكثرة المضايقات التي واجهتها هذه الجماعة، لم تنزلق في عمل من أعمال العنف، أو تشكيل منظمة مسلحة طوال فترة مواجهتها العلنية مع الدولة منذ منتصف الخمسينيات من القرن الماضي وإلى يومنا هذا.

ومما يميز هذه الجماعة زيّها الخاص الذي يرتديه الجميع- رجالًا ونساءً وأطفالًا صغارًا و شيوخًا كبارًا- فالملابس النسائية السوداء -ويسمونها «شرشف» - علامة مسجلة لهم، تُلبس بطريقة خاصة فلا تبدو إلا العيون والأنوف من الملابس السوداء الواسعة، أما الرجال فإنهم يعرفون بلباس إسلامي بطراز عثماني؛ حيث يرتدون القميص الطويل والسروال العريض وفوقهما جبة تضفي الكثير من الوقار، ويتميزون أيضا بتغطية الرؤوس وارتداء العمائم بأشكال مختلفة.

وتعرف هذه الجماعة بحرصها الكافي على اتباع المذهب الحنفي، وتطبيق كل ما دق وجل فيه، ويتكلمون العربية الفصحى؛ لأنهم يدرسونها في مناهجهم، ويتعلمون علومها من صرف ونحو وبلاغة. وكل ذلك مما يورثهم قدرة أكبر على التأثر والتأثير بالعرب المسلمين، ويجعلهم أكثر فهمًا للدين من الجماعات الأخرى.

ثقلها السياسي وقدرتها على التأثير:

ومما يكشف عن مدى تأثير هذه الجماعة في الملايين من الأتراك والمسلمين، وثقلها السياسي مقتلُ أبرز قيادات وشيوخ هذه الجماعة ومحاولة اغتيال الشيخ المؤسس لها.

ويتمثل هذا الثقل السياسي أيضًا في الزيارات المتكررة لقيادة الصف الأول في الدولة التركية، وخاصة رئيسها الحالي رجب طيب أردوغان، ورئيس الوزراء الأسبق أحمد داود أوغلو لطلب مساعدة الشيخ في عدد من الانتخابات التركية. كما ينم ذلك عن مدى نجاح الشيخ محمود أفندي في إحداث التأثير الإيجابي في ظل الدولة التركية الضاربة الجذور في العلمانية عبر عصور مختلفة بحكم استيلاء الجيش وحمايته لمبادئ العلمانية التي كانت عنيفة شديدة في حق الإسلاميين.

كما لاينسى دور هذه الجماعة وتلاحمها مع أطياف الشعب التركي الأخرى في إفشال الانقلاب العسكري الذي شهدته تركيا عام ٢٠١٦م، فقد خرج أعضاء هذه الجماعة جنبًا إلى جنبٍ مع الشعب التركي للحفاظ على مكتسبات الوطن، وعلى الحكومة الشرعية، خرجوا إلى الشوارع و الميادين بدعوة من الرئيس التركي، وصمدوا أمام القوات الثورية. وتقدر النسبة المئوية للوزن الانتخابي لهذه الجماعة بما يفوق ٢ أو ٣٪، وهي نسبة ليست بالهينة،ولاينكر ما لها من تأثير.

تأسيس جمعية «إدف»:

و «إدّف» اختصار لكلمة «اتحاد الجمعيات التي تقدر البشرية»، ويقصدون البشرية جميعًا ليس فقط المسلمين؛ ولذلك فخدماتها قد تمتد لغير المسلمين. وانبثقت هذه المؤسسة تحت جناح مسجد إسماعيل آغا. ومؤسس هذه الجمعية هو الشيخ محمود أفندي. ولهذه الجمعية نشاطات واسعة في الدول الإفريقية وغيرها.

مؤلفاته:

علاوة على قيادته الروحية كإمام وزعيم لـ«جماعة إسماعيل آغا» النقشبندية، عُرف الشيخ «محمود أفندي» بتصنيف عدد كبير من الكتب الدينية في حياته، ومن أهمها كتاب التفسير «روح الفرقان» الذي نشر في ١٩ مجلدًا،

وكتاب «المحادثات» الذي يشمل أحاديثه الشخصية في تسعة مجلدات، و«رسالة قدسية» في مجلدين، وكتاب «صحبة عمر»، و«تفسير سورة الفاتحة» وغيرها.

من أقواله المأثورة:

ومن أقواله المأثورة في تركيا: «إذا رأيتموني أدَعُ ثلاث سنن للنبي عليه السلام، فلا تصلّوا خلفي».

وكان يقول لأتباعه ومحبيه: «أبو جهل أخرج النبي عليه السلام من مكة، وأنتم لاتخرجوه من قلوبكم».

وكان إذا سأله أصحابه عن الكرامة ردد قول الشاه نقشبند البخاري: «الاستقامة عين الكرامة».

وكان قبل وقوع الانقلاب الثاني في الثاني عشر من شهر أيلول– سبتمبر– ١٩٨٠م وفي أثناء الصراع الواقع بين أحزاب اليمين واليسار ينادي قائلا: إن واجبنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجبنا هو إحياء الناس وليس قتلهم.

مكانته في تركيا:

يعتبر «العلامة محمود أفندي» الأب الروحي لـ«جماعة إسماعيل آغا» في تركيا، ويبلغ عدد أعضاء جماعته الملايين، ينتشرون بصورة لافتة للعيان في منطقة الفاتح بإسطنبول، وخاصة في حي يافوز سليم، كما أن لهم انتشارًا واضحًا في ولاية قونيا المعروفة بكونها معقلًا لأهل التصوف، وفي طرابزون مسقط رأسه. وفي عام ٢٠٠٥م حدثت قصة عجيبة ومثيرة للغاية لم يشهد مثلها المسجد الحرام في مكة المكرمة منذ عدة قرون، وتحدثت عنها الصحافة التركية والعالمية، حيث دخل الشيخ محمود أفندي إلى ساحة الطواف لأداء العمرة، ومعه ٣٠ ألف مريد يملؤون ساحة الطواف وكلهم يلبي ويدعو الله تعالى بصوت واحد.

صراعه مع العسكر والعلمانية:

و زيادة شعبيته وقبوله وارتفاع أسهمه في الشعب التركي مما تسبب في تعرضه لعدد من الافتراءات والمضايقات؛ فقد واجه كثيرًا من المشكلات والمتاعب في مشواره الدعوي، وظل في صراع مستمر مع العسكر، ومع العلمانية في البلاد، التي كانت ترى جهوده ومساعيه حربًا ضروسًا على نفسها. فاتهمت العلامة محمود بإصدار فتوى بقتل مفتي منطقة أوسكودار حسن علي أونال عام ١٩٨٥م، وبالضلوع في مقتله، وفتحت السلطات التركية في حينها تحقيقًا ضد جماعة إسماعيل آغا. وكان «أونال» يتوجس خيفة من تغلغل جماعة محمود أفندي أكثر فأكثر في البلاد، ويحاول إيقاف نشاطاتها وجهودها؛ ولكن المحكمة برأت ساحة العلامة محمود أفندي.

كما تعرض لعدة محاولات لاغتياله وقتله، ولكن الله تعالى سلمه، وباءت هذه المحاولات كلها بالفشل، وتم اغتيال صهره خضر علي مراد في المسجد عام ١٩٩٨م، وفي عام ٢٠٠٦م تعرض بايرم علي أوزتورك– أحد شيوخ الجماعة– للطعن حتى الموت داخل مسجد إسماعيل آغا. وشكل كل ذلك هزات شديدة على الجماعة، وعلى العلامة محمود، وأصحابه ومريديه. وتعرض الشيخ أفندي لمحاولة الاغتيال عام ٢٠٠٧م، حيث أطلق على سيارته الرصاص؛ ولكنه نجا، وتم نقله إلى المستشفى، وكان المهاجمون من ورائه بالمرصاد إلى المستشفى، وهجموا عليه داخله، ولكن الله تعالى أنقذه من براثن أعدائه سالما معافىً.

رحلاته:

قام العلامة محمود أفندي برحلات دعوية داخل تركيا وخارجها، وكان أول زيارة خارجية له إلى دمشق عام ١٩٨٨م، ثم واصل إرسال أتباعه وتلامذته للاستفادة من علماء الشام وتلقي العلم منهم، كما زار ألمانيا و بريطانيا في رحلات دعوية، وفتح له مكاتب فيها ونشر أتباعه، كما زار

بخارى و الهند وغيرها من دول العالم.

زيارته للهند:

في شهر فبراير من عام ٢٠٠٥م قام الشيخ محمود أفندي برحلته إلى الهند لزيارة علمائها و صالحيها وخصوصًا شيوخ ومصابيح سلسلة الطريقة النقشبندية. وكانت إحدى محطات هذه الزيارة – كما أخبرني به بعض مشايخ الدار- الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، واجتمع خلالها بمشايخها و مسؤوليها في لقاءات ودية ومدارسات علمية، وتبادل خبرات وعلوم دينية شرعية.

جائزة تكريم له:

وشهدت مدينة إسطنبول في٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر٢٠١٠م، حفلَ تكريم وتقديم جائزة الندوة الدولية من أجل خدمة الإنسانية حضره ٣٥٠ عالمًا من ٤٢ دولة، وقدمت لفضيلة الشيخ محمود أفندي النقشبندي جائزة الإمام محمد قاسم النانوتوي (١٢٤٨-١٢٩٧هـ/١٨٣٣-١٨٨٠م) على يد حفيده- الإمام محمد قاسم- الشيخ محمد سالم رحمه الله. ويعدُّ الإمام النانوتوي من أبرز الشخصيات الرائدة في مجال التعليم والدعوة الإسلامية، قام – مع ثلة من رفاقه وإخوانه من أصحاب العلم الغيارى- بتأسيس أعرق وأكبر جامعةٍ إسلامية أهليةٍ في شبه القارة الهندية قائمة على تبرعات المسلمين بعد إخفاق ثورة عام١٨٥٧م ضد الاستعمار البريطاني الغاشم على صدر هذه البلاد، و الناهب لثرواتها حقبة غير قصيرة.

وكانت وُجِّهَت دعوة الحضور في هذا الحفل إلى مشايخ هذه الدار، فشارك فيه عدد منهم. وألقى فضيلة شيخنا الشيخ أرشد المدني حفظه الله- أستاذ الحديث ورئيس هيئة التدريس بها- كلمة هنأ فيها الشيخ الأخ في الله/ محي الدين محمد عوامة على عقد هذه الحفلة: حفلة تقديم وسام الشيخ محمد قاسم الناتوتوي رحمه الله إلى فضيلة الشيخ محمود أفندي النقشبندي. وأشار فضيلته إلى أنه يستحق أن يقدم إليه هذا الوسام للمماثلة بين شخصيتيهما؛ فإن الشيخ النانوتوي هو مؤسس المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية في بداية الأمر، وإن الشيخ محمود أفندي هو مؤسس المدارس الإسلامية في هذا الزمان. كما نوَّه الشيخ المدني في كلمته بالجهود التي بذلها الإمام النانوتوي في إنشاء المدارس الدينية، والحفاظ على الأمة الإسلامية عقيدتها وأعمالها، وبأن هذه الجهود أثمرت المدارس الدينية في شبه القارة الهندية؛ بل في أدغال إفريقية، وأمريكا، وأوربا وغيرها.

ثناء العلماء وعزاؤهم عليه:

قال العلامة الشهير محمد علي الصابوني- الذي غرف من هذا البحر العظيم، ونهل منه الخير الكثير، وسلك الطريقة على يده، وأخذ عنه الحقيقة-: «إن الشيخ محمود أفندي ليس شيخ تركيا فحسب؛ بل شيخ العالم كله».

وقال الدكتور/ محمد الأسواني: «إن الداعية الرباني فضيلة الشيخ محمود أفندي النقشبندي مؤسس جماعة محمود أفندي، الجماعة الصوفية الأكبر في تركيا، ورئيس وقف إسماعيل آغا، ترك أثرًا في الناس لاينقطع، من علم نافع، وهُدى دعا إليه، وأعمال طيبة يحصيها له شهود الحق.... في أنحاء تركيا ترى مظاهر التدين فتسأل من هؤلاء؟ فيُقال لك: أتباع «محمود أفندي» ... وأثر جهده ودعوته في بلاد كانت مبالغة في العلمانية «.... وأتباعه والذين يُقدرون بمئات الآلاف يتقدمون الصفوف، ويفترشون الأرض أيام انقلاب ٢٠١٦م، ليخرج الصوفية من الأماكن المغلقة إلى الميادين والشوارع والعمل مع الناس في الدعوة».

وقال: الأكاديمي رضوان جاب الله: «إن الشيخ الراحل هو أحد أكبر علماء تركيا في الدعوة و التبليغ، وإنه

تلقى العلوم العربية- اللغة العربية والبلاغة- والعلوم الإسلامية- القراءات وعلوم التفسير و الحديث -.... وتولى إمامة مسجد إسماعيل آغا، وكان له جولة أسبوعية ليوم واحد، وفي كل شهر ثلاثة أيام، و في كل سنة شهر، يدعو، ويبلغ رسالة الإسلام في كل أنحاء تركيا بطريقة بسيطة ولطيفة على منهج علماء السنة من أهل الشام ... وتعرض الإمام محمود أفندي للإقامة الجبرية بعد انقلاب الستينيات في تركيا، ثم تعرض للنفي بعيدًا عن إسطنبول بقرار الحاكم العسكري، ولكن الحكم لم ينفذ بعد أن رفض المفتي ... وبعد انقلاب عسكري آخر على الانقلاب لفقوا له تهمة الضلوع في قتل مفتي المحافظة، ولكن المحكمة برأته، واتهمت الذي لفق المحضر ... وفي انقلاب ثالث تم نفيه خارج تركيا، وظل ثماني سنوات فتجول في كافة دول العالم، وصار أشهر دعاة تركيا في الخارج حتى عاد مع حكم حزب العدالة والتنمية، وزار دمشق في ١٩٨٩م، واستقبله كبار علماء الشام في مشهد مهيب، ومن يوم هذا الاستقبال تعرف عليه العرب والعجم وحتى الجاليات التركية في الخارج».

وقال الداعية المصري الدكتور/محمد هشام راغب: إنه التقى النقشبندي مرة عام ١٩٩٥م في مسجده -إسماعيل آغا- بعد درس له في التفسير، كانت تركيا وقتها تعيش علمانية تسعى لإقصاء الدين عن الحياة، وتستخدم لهذا أدوات في غاية القسوة، كان مشهد درسه ومسجده خارج السياق تمامًا، فقد افترشت أعداد كبيرة الطرقات حول المسجد، وبإصغاء شديد لدرس الشيخ، وبعد الدرس ذهبت للسلام عليه، وقدمني له أخ مترجم، وكنت وقتها في عمر أصغر تلامذته، فبادرني بقوله: «مرحبًا مرحبًا بأساتذتنا المصريين أحفاد الصحابة الكرام، كان حريا بك أن تبقى في محل إقامتك، ونحن نسعى لزيارتكم والاستفادة منكم».... وتجربة الشيخ محمود أفندي رحمه الله جديرة بالتأمل، لمعرفة كيف شق طريقه إلى قلوب الناس في ظروف وبيئة غير مواتية؛ بل معادية، وكيف استقام على دعوته ببصيرة و عزيمة لاتكل، وللشيخ الآن تلامذة وتلامذة لهؤلاء التلامذة في كل ربوع تركيا، في المدن والقرى وحتى في المناطق الجبلية النائية... وقضى أكثر حياته في الدعوة والتعليم، وهدى الله تعالى على يديه أعدادًا غفيرة لايعلمها إلا هو سبحانه».

ووصفه الدكتور/محمد بشير حداد نعيًا له بـ«المربي الكبير والعالم الجليل»، وقال: نلمس آثاره الدعوية في كل تركيا، وخارج تركيا في دول كثيرة، وقد صحبته وشهدتُ بعض مجالسه، بصحبة أخيه الروحي الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني رحمهما الله، فكانت مجالسه مجالس سكينة ونور وأدب ودعوة وخشية وفضل وذكر وبهاء وجمال وكمال، وكان لي منه شرف الرعاية، والحفاوة حتى وهو على فراش المرض في سنوات حياته الأخيرة، رحمات ربي عليه إلى يوم الدين».

ونعاه الصحفي السوري، أحمد موفق زيدان، عبر حسابه في تويتر، وهو يتحدث عن أثره على صعيد العالم الإسلامي: «رحل عن دنيانا الفانية إلى دار البقاء فضيلة الشيخ الداعية التركي محمود أفندي. لقد ترك بصماته على مستوى العالم الإسلامي، لن ننساه في سوريا بدعم المشردين و الأيتام، وستذكره أفغانستان وإفريقيا، عظم الله أجر أهله وأحبابه، والملتقى بإذن الله على حوض المصطفى عليه السلام».

ووصفه المحلل السياسي التركي/ حمزة تكين، في تغريدة له بـ«صاحب الأيادي البيضاء». و قال: «وفاة العالم التركي الشيخ محمود أفندي صاحب الأيادي البيضاء بخدمة الإسلام والمسلمين لعقود طويلة من الزمن، وفي أصعب الظروف.. هو أحد أبطال ملحمة ١٥ تموز/يوليو

٢٠١٦ ضد الانقلابيين.. أحد العلماء العاملين المعتدلين الوسطيين غير المغالين. إنا لله وإنا إليه راجعون».

وغرَّد الصحفي السوري تمام أبو الخير عبر حسابه مشيرًا إلى الصراعات التي خاضها الشيخ أفندي لنشر دعوته في تركيا: «توفي اليوم الشيخ محمود أفندي عن عمر ٩٣ عامًا، صاحب أكبر الجماعات الإسلامية في تركيا، الصوفي النقشبندي، تخلل حياته الدعوية الكثير من الصدامات مع الحكومات، والمحاكم فيما مضى، وتعرض لمحاولة اغتيال في٢٠٠٧م. رحمه الله وغفر له».

ونعاه الدكتور/علي القره داغي- الأمين العام لاتحاد علماء المسلمين- في تغريدة له واصفًا إياه بأنه «مثّل أعلى قمة في الإسلام وهي الإحسان»: بقلوب تسلم بقضاء الله وقدره نعزي أنفسنا وتركيا والعالم الإسلامي بوفاة الشيخ محمود أفندي رحمه الله، الذي كان المثال بعلمه وحاله للتربية و التزكية، وقدّم من جوهر صوفيته وتحقُّقه أنصع البراهين، وأقوى الحجج على أن التصوف الملتزم بإمارة الفقه يُمثِّل أعلى قِمّة في الإسلام وهو الإحسان».

هذه نبذة من سيرة العلامة محمود أفندي ومسيرته، وحياته الحافلة بالمآثر والمناقب والأعمال المجيدة في صالح البلاد والعباد، نسأل الله تعالى أن يتقبلها منه، ويجعلها في ميزان حسناته يوم لاينفع مال ولا بنون.

وفي الختام نسرد رسالة عزاء أرسلتها الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند على وفاة الشيخ محمود أفندي إلى أصحابه ومحبيه وأعضاء جماعته وذويه:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة من عائلة المرحوم وذويه ومحبيه المحترمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فقد تلقينا، بكل أسى وبقلوب مؤمنة بقضاء الله تعالى وقدره نبأَ وفاة المغفور له بإذن الله تعالى العلامة الداعية محمود أفندي طيب الله ثراه، وبرَّد عليه مضجعه.

لقد ترك العلامة آفندي بصمةً واضحةَ المعالم في خدمة الشعب والدولة، وتوعية ونشر الوعي الديني لدى الملايين في جميع ربوع تركيا، مما يخلد ذكره، ولاينسى التاريخ ما بقي الليل والنهار بلاءه و جهوده في سبيل إعلاء كلمة الله ومساعيه في تنفيذ الشريعة الإسلامية في تركيا، وفي العالم؛ ثم ما تعرض له الشيخ من مضايقات وعلى يد العسكر والجمهوريين، وخاصة بعد ثورة عام ١٩٦٠م، وشهود البلاد حالة الطوارئ، وحكمت عليه الإدارة العسكرية بالنفي، وإن لم يطبق هذا القرار. كما تمت إحالته إلى محكمة أمن الدولة عام ١٩٨٥م بعلة أن خُطب الشيخ ودروسه تشكل تهديدًا صارخًا لعلمانية البلاد. ثم صدر الحكم ببراءته من التهمة. وتخرج على يد الشيخ في مدة زمنية تتراوح بين ٤٠ و٥٠ عامًا آلاف من حفظة القرآن الكريم، والمعلمين رجالا ونساءً، وتدرب عشرات الآلاف من الطلبة على الجهود الدينية.

ولايسعني بهذه المناسبة الأليمة إلا أن أتقدم – أصالةً مني ونيابةً عن الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند- بأحر التعازي، وأصدق عبارات المواساة إليكم جميعًا، داعيًا المولى عزوجل أن يتغمد روح الفقيد بواسع رحمته، ويسكنه فسيح جنانه، وأن يلهمكم الصبر والسلوان.

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المخلص

(المفتي) **أبو القاسم النعماني**

رئيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند

ديوبند، الهند.

بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

والـدين الإسـلامي يحـث عـلى المـصارحة والوضـوح كثيرًا قبـل الحكـم عـلى أحـدٍ مـن النـاس بسوء أو شر. وما قصة حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه- منا ببعيد؛ فقد بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرُ الكتاب الذي أرسله حاطب إلى أهل مكة بيد امرأة قدمت المدينة، فبعث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض أصحابه وراء المرأة، فلحقوا بها، واستخرجوا منهـا الكتـاب، ورجعـوا إلى المدينـة، فلـما عُـرض الكتـاب عـلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلـم أنـه من حاطب بن أبي بلتعة طلبه، ولم يتعجل في معاقبته قبل أن يصارحه بالأمر، ويسأله عنه في رحابة صدر وعطف: «ما حملك على ما صنعت»؟ فقال حاطب: والله، مـا بي إلا أن أكـون مؤمنًـا بـالله ورسـوله- ﷺ-، أردت أن تكون لي عند القوم يد، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله. فقال: «صدق، لا تقولوا إلا خيرًا».

فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. فقال: «أليس من أهل بدر؟ - فقال-: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا مـا شـئتم فقـد وجبـت لكـم الجنـة- أو- قـد غفـرت لكم» فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.. وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة/١].

لِنَقِفْ هنا أمام عظمة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسموّ شأنه وعلوّ منزلته؛ حيث إنه لم يستعجل في مؤاخذة حاطب، وإنما صارحه بالأمر، و واجهه به حتى يدرك الأسباب الدافعة له إلى ذلك.ثم منع الـصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- عـن الطعـن فيـه، قـائلا: «صدق، لا تقولوا إلا خيرًا»... لنتأمل جيدًا موقف الرسول الكريم المتأني الذي لايغض الطرف عن جميع ظروف القضية وملابساتها.

وكان من حديث صاحبنا الذي ذكرناه آنفا أنه وجد العرب - على ما تسرب إليهم من عادات غـيرهم وتقاليـدهم- عـلى غايـة مـن الـصراحة والوضوح، والمواجهة بالأمر لمن يهمه دون التشكي والتظلم إلى غيره. فكان صاحبنا ربما تشكى إلى أحد زملائه العرب مسؤولَه أو زميله في العمل فلا يلبث صـاحبه أن يقـول لـه: هـل واجهتـه بـذلك؟ وهـلا صارحته بالأمر الذي تشتكيه إلي؟

وهـذه القيمـة الإنـسانية الإسـلامية تـشكل في الواقـع صـمام الأمـن مـن كثـير مـن مساوئ الظنـون، وسدًّا منيعًا ضد كثير من الويلات التي نواجهها نحن العجم من جرّاء الابتلاء بمثل هذه الشنائع. والعرب أمة عجنت طينتهم بقلة التشكي، يقول تأبط شرّا:

قَلِيل التَّشَكي لِلمُهِمِّ يُصِيبهُ
كثيرُ الْهوى شَتَّى النَّوَى وَالمسَالِكِ

وقال دريد بن الصِّمة يرثي أخاه عبد الله بن الصمة:

قَلِيلُ التّشَكّي للمُصِيبَاتِ، حَافِظٌ،
مِنَ اليَوْمِ، أَعْقَابَ الأحَادِيثِ في غَدِ.

هل واجهته؟

كنا شببة متقاربين في السن، نتلقى الدراسة الدينية في بعض المدارس الأهلية الهندية، ونجتمع على أساتذة وشيوخ في العلم والأدب والحديث والفقه. ثم تخرجنا فيها، وكتب الله تعالى لبعض زملائنا أن يتوجه للدراسة ثم للعمل إلى الدول الخليجية العربية. ويقضي فيها ما شاء الله تعالى أن يقضي من زهرة عمره، وريعان شبابه، وشيئًا لابأس به من كهولته.

ونحن الهنود وكثير من المسلمين المنتمين إلى مختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية قد عُجنت طينتنا- إلا من عصمه الله تعالى من هذا الداء الوبيل- بالإكثار من الشكوى، والتظلم، والتشكي. فإذا نال أحدَنا من زميله أو شيخه أو مسؤوله في الدراسة والعمل سوء أو مكروه أو سمع أذى أو بلغه أن فلانًا من الناس يسيء الظن به أو يقول فيه مالايحبه ولايرضاه، لم يلبث أن يجِدَ عليه في نفسه قبل أن يتأكد من البلاغ والخبر، فيضمر في نفسه ما لايعلمه إلا الله تعالى من السوء والبغيضة، والمكيدة والحرب. وكثيرًا ما يدخل الكذوب المحتال بين المتحابين فينم إليه من حبيبه ما لم يكن، ويأتي بما لم يقل، ويفعل، فلايزال بهما حتى يحملهما على التقاطع والتدابر والتباغض والمشاحنة، ويفسد بينهما.

والحق أن المصارحة فيما بين الناس – مهما قست – خير من النفاق والتشكي والتظلم إلى من لايقدر على أن يشفيهم. وما أكثر من يلاطفك ويجاملك في التعامل، ويثني عليك ويطريك بما هو فيك وبما ليس فيك، و يرقيك بالقصائد «المسومة»، فإذا خرج من عندك وفارقك، اتهمك بسوء المعاملة و الاعتداء عليه، وأضمر في نفسه المكيدة والشر. وما أكثر مَن يتأذى من الآخرين، ولكن لايجد من نفسه جرأة على المواجهة والمصارحة به لهم.

وربما تجد صديقًا من أصدقائك قد أخطأ، أو انحرف عما هو الحق والصواب، فتؤاكله وتشاربه و تجالسه وتخالطه دون أن تتجرأ على المصارحة له بما فيه من الخطإ والانحراف، فلاتأخذ على يده، ولا تمنعه عما هو فيه رغبةً في الإبقاء على صداقته وحبه لك فيما تزعم. وهو الداء الدوي الذي ابتليت به الأمم قبلنا، وقطع دابرهم.

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري